

أحمد الروبي

رواية

أحمد الروبي

عصير
الكتب

للنشر والتوزيع



الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

الجودي

الكتاب: الجودي

المؤلف: أحمد الروبي

تدقيق لغوي: أحمد إبراهيم إسماعيل

تصميم الغلاف: عبد الرحمن حافظ

تنسيق داخلي: سمر محمد

رقم الإيداع: ٢٥٠٠٣٧٨/٢٠١٦

٩٧٨٩٧٧٦٥٤١٠١١ : I.S.B.N

محمد شوقي : المدير العام

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس/ 01150636428

للمراسلة الدار: Email:P.bookjuice@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع



الجودي

رواية

أحمد الروبي



إهداء

إلى روح السيدة رضوى عاشور، وإلى النور الذي يغطي
قبر عبد اللطيف.

سلامٌ إلى الروح الأولى حتى يوم الحشر، وسلامٌ إلى الروح
الثانية حتى يوم القصاص .

فطوفان نوحٍ عند نوحٍ كأدمعي
وإيقاد نيران الخليل كلوعتي

ولولا زفيري أغرقتني أدمُعي
ولولا دموعي أحرقنتني زفرتي

سلطان العاشقين " ابن الفارض "

الفصل الأول
من البدايات نهاية

آدم

قرية ظالمة، قوم جهلاء، ونفوس استرضت الجلد والاستعباد، فكيف
يطلع عليهم النور من بعد الظلام ؟

وبين كل هذا فإن قلبي على آسيا يكاد ينفطر .

يكاد الشك والحيرة أن يقتلاني . الشك مُرٌ كصبارٍ أشواكه تنخر
الحلق . والحيرة تيه في ظلمات تغطيها ظلمات .

اليوم يوم الرحيل، الروح الساكنة جسدين ستنقسم لجزئين، ليحل
كل جزء في جسد . لكن أمر الله قد جاء، لا مُنجي اليوم من غضب
الله سوى تلبية نداءه.. ليتك لبيتي النداء يا آسيا .

ليتنا لم نلتق يا آسيا، ليت قلب آدم لم يعرف للحب طريقاً، ولت
اللقاء لم يكن علينا مكتوباً .

كنت جالساً وحدي عند سفح الجبل الأحمر كعادتي حين يأخذني
التفكير والتأمل .

دائمًا ما أردت أن أتخيل الله شكلاً، كنت مشغول البال منذ صغري
بشكل الله وصفاته، أخبرنا نوح أن الله حلِيم ولكنه شديد العقاب، كيف
لحلِيم أن يغضب ؟ وإذا غضب، أيهدأ مرة أخرى أم أن غضبه يدوم ؟
سمعت نوحًا يقول لأخيك صوفسياؤس ذات مرة أن ربه لا يجبه،
دمعت عينا صوفسياؤس وسقط على قفاه من شدة الضحك، ثم قام
ونفض عن ثوبه التراب، مسح دمه ونظر إلى نوح بسخرية ثم بصق
على الأرض ومضى في طريقه .

كساحرات الصحراء رأيتك تقترين مني، كان وجهك يشع بالنور،
خدّاك غزاهما اللون الأحمر فزادهما حُسنًا على حُسن، ثوبك الشفاف
يلتصق بجسدك البض النابض بالحياة . تضربين الأرض بقدمك وكأن
أحدًا لا يخطو فوقها غيرك . دنوت مني فشعرت بأن جسدي يفور،
احمر وجهي، وزادت دقات قلبي حتى سمعت صوتها وكدت أشعر أن
صدري سينفجر .

- أظنك كنت ترسم .. لا تقل أنك كنت ترسمي .

ابتسمتُ بدلال، كانت الكلمات تطيعها بطريقة عجيبة، صوتها
مثير .. يشعر المستمع إليها بأن الكلمات تعانق شفثتها حين تخرج من
بينهما .

- ارتبكت، حاولت الابتسام فانطلقت مني ضحكة عصبية .
- عذراً .. لم أكن أرسم شخصاً، كنت أخط بالعصا فقط .
- مشغول البال، تفكر كثيراً، عيناك تقول الكثير .
- نعم ..
- الوصول إلى الحقيقة أمرٌ مثير للحيرة حقاً، لذا فقد كففتُ عن التفكير منذ زمن .
- يصعب عليّ أن أقرر التوقف عن التفكير دون أن يصل عقلي وقلبي إلى الحقيقة، لا بد أن أعرف السر .
- حقيقة نوح .. أليس كذلك ؟
- وقع رُدُّها على قلبي كلدغة العقرب، فقد كان مجرد التفكير في أمر نوح ووضع احتمال ولو ضئيل بأنه على حق كفيلاً بأن يجلب على المرء العار والسخط .
- وكيف عرفتِ ؟
- قُلت لك .. عيناك فاضحة يا ولد عمي .
- ولد عمك ؟

- كلنا أولاد عم، ألسنا ننتمي إلى نفس الأب ؟ كلنا أفرع لنفس الشجرة، شئ غريب .. ومضحك !

- ليس كل غريب يُضحك، عقلي لا يتوقف عن التفكير، أريد أن أصل إلى الحقيقة .. أهذا صعب !؟

- بل مستحيل، نوح يرى أنه على حق وأن قومه على الباطل، والقوم يرون أنه على باطل وأن لا حق سوى ما يعبدون .

- وأنتِ .. ما الحق بالنسبة اليك ؟

- الحق أن آدم قد أخطأ حين قرر الزواج من ستنا حواء .

قامت من قعدتها وبدا أنها تستعد للرحيل، توقف قلبي عن النبض ونضبت من وجهي عصارة الحياة، ستغادر دون أن أعرف حتى اسمها، فامتدت يدي دون أن تطلب من عقلي الإذن بالامتداد، ضبطني أتشبت بكفها بكلتا يدي . قلت :

- اجلسي قليلاً، لا أريد الكلام ولا أجيده، لكنني أحب أن أطيل إليك النظر .

بدأت تستعيد روح الدعابة والسخرية، فاستبدلت بالضحك المرح وقالت :

- أترك يدي يا ولد عمي، فهذا وحق إله نوح مُحرّم .

أربكني تذكيرها لي بما أنسانيه قلبي، أنسيت ربك يا آدم ؟ كيف تؤمن بما لا تفعل؟! تركت يدها على مبيض وحاولت تغيير دفة الحديث .

- تقولين إله نوح، إذا فأنت لا تؤمنين به .. فيمِ تؤمنين ؟

- أوّمن بأن الإيمان شئ لا أصل له ولا فروع، لا أرى دليلاً على صدق نوح، ولا أرى عبادة أهلي لكومة من النار إلا الجنون بعينه، لذا فقد قررت ألا أوّمن بشئ، على الأقل حتى أرى دليلاً بعيني، لم ينته الكلام يا ولد عمي لكن الوقت انتهى .

قامت ونظرت إلى يدها مبتسمةً .. قالت

- ألن تمسكها هذه المرة ؟

أردت أن اسألها متى اللقاء، لم يطاوعني لساني فابتسمت، وكأنها تقرأ ما يدور بعقلي فقالت :

- سنلتقي يا آدم، مؤكداً أننا سنلتقي .

- تعرفين اسمي ؟

غمزت بعينها وقالت :

- أعرّف عنك الكثير .

قلت وقد تملكني الفضول :

- ولا أعرّف عنك شيئاً .

- قريباً ستعرف كل شئ .

- متى ؟

- قريباً يا آدم. ألم يصبر نوح على قومه تسعمائة عام ؟ كُن صبوراً

مثله.

- ما اسمك ؟

- آسيا يا آدم .. آسيا .

آسيا

آه من المتمرد إذا عشق .. كالغصّة في الحلق حُبك يا آدم .
عجيب أمرك يا آسيا، تكرهين الطريقة التي أجبرك بها أحدهم على
أن تكوني أحد مخلوقاته .

ولا تجدين تناقضًا بين كرهك له - أيًا يكن - وعشقتك لآدم .
ممزقة أنا يا آدم بين كره الخالق وعشق المخلوق، إذا كان قد صنع
لي معروفًا فلا شك أنه سيكون حُبّي لك، ليته خيّرنا قبل أن يخلق آدم
ويُلقي به وبنا على تلك الأرض، حينها قطعًا كنت سأختار أن أدخل
بإرادتي الحرة إليها .

إلى عينيك التي لا موطن لي غيرهما .

كان يومًا لا يُنسى، وكيف أنسى أول مرة ينبض بالحب قلبٌ اعتاد
الكره؟! منذ طفولتي وأنا متمردة على كل شيء، ساخطة على كل شيء،

أكره استعباد البشر لبعضهم البعض، أكره التجارة التي جعلت من أبي سيدًا في قومه، لا يختلف كثيرًا عن باقي سادة القوم .

حفنة من الحمقى الاستغلاليين، قلوبهم جافة كأنها جيفة وعقولهم مظلمة لا ترى النور ولا تعرف إلا الأموال والشهوة .

كيف لمخلوق أن يستعبد مخلوقًا ؟ وكيف للمستعبد أن يرضى ويقبل أن تُهان كرامته فيخلع ثيابه موليًا لسيدة ظهره، يتحمل الجلد بالسوط أوالعصا عاجزًا حتى عن التأوه كي لا يزداد غضب سيدة عليه؟! كيف رضى العبد أن يهين مالكه عقله بذلك الشكل ؟ هل ظن العبيد أنهم ينتمون لطبقة دنيا من البشر لا عقل لها ولا مشاعر فارتضت لنفسها أن تكون كالنعاج تُساق معصوبة العين ؟

وإذا كان هذا حال البشر بعد بضع أجيال قليلة من خلق آدم، فكيف سيصبح حال البشر بعد سبعة آلاف سنة من الآن ؟ هل سيدرك العبيد أنهم يمتلكون عقولًا يستطيعون بها التفكير والتدبر والتمرد ؟ وأهم يستبدلون بالخوف كنزًا ثمينًا اسمه الحرية ؟ أم سيصبح نظام الكون أكثر تعقيدًا مما نحن عليه الآن ؟ ترى أسيزداد بطش الطبقة السائدة الحاكمة للمجتمع بمن دوّهم من البشر ؟

رأيت يوماً أحد المزارعين يسوق حماره بطريقة عجيبة، كان يركب حماره وأمامه حمل ثقيل، كان الحمار منهكاً بشدة، شاحب الوجه وطريقته معوجة في المشي، كالسائر على طريق من الزبد .

فجأة توقف الحمار ولم يستطع حراكاً ..

أدرك المزارع ذلك فنزل عنه، وضع يده في جيبه وأخرج منها قطعة من الجزر، بدأ الحمار يلهث، انساب خيط غليظ من اللعاب على جانبي فمه .. " جائع .. أليس كذلك ؟ " قال المزارع والمكر ينقط من عينيه، وكأن الحمار قد فهم قوله، أخرج لسانه وزاد لهاته .

ربط الرجل قطعة الجزر بحبل من الكتان في كلتا أذني الحمار، وثبتها أمام عينيه بعصاه .

نسى الحمار كل شيء، نسى الضرب الذي كان يتلقاه بنفس العصا المثبتة بها قطعة الجزر منذ كان جحشاً صغيراً، نسى الرغبة العارمة التي اجتاحت تفكيره لساعات طوال بأن يثب واقفاً على قدميه الخلفيتين فيسقط عنه سيده فيدوسه بقدميه حتى يقتله، سيطرت عليه فقط في تلك اللحظة غريزة الجوع .. نسى كل شيء سوى أنه مجرد حمار .. حمار جائع .

الحق أن الجوع والسعي إلى البقاء هي الصفات الحاكمة لتصرفات كل الحمير .

ولذلك حاول الحمار أن يقترب من قطعة الجزر فوجدها تبتعد، ظن أن الجوع قد أثر على نظره، فاقترب منها أكثر، ولساعاتٍ طوال مشى الحمار على أمل الوصول إلى قطعة الجزر، حتى وصل إلى الكوخ، وهنا نزل عنه سيده، حل عن أذنيه قطعة الجزر، وكافأ حماره بأن وضع له خمسة عشر عودًا من البرسيم .

الجزر أكل السادة فقط لا العبيد، العبيد تأكل البرسيم الذي يضعه أمامهم السادة بعد أن يفكوا قطعة الجزر عن آذانهم .

تلك تحديدًا كانت طريقة تعامل سادة قومي مع عبيدهم .. الحمار وقطعة الجزر، أحيانًا تأخذ قطعة الجزر شكل الاستقرار، فالحياة على الأرض مازالت آخذة في التشكُّل، وقريبًا ستستقر الأمور ويُصبح كل بني البشر سواسية، وحتى ذلك الحين فلا بد للنخبة أن تحكم وتتحكم .. وتأكل الجزر .

أحيانًا أخرى تكون قطعة الجزر على هيئة مأوى، فيما أن ترضى بالذل والإهانة والبرسيم القليل، وإما أن تخرج من القرية مطرودًا إلى الصحراء . أقليل من البرسيم خيرٌ أم النفي إلى ظلمة الصحراء ؟

تتلون قطعة الجزر وتأخذ هينات وأشكال، ولكل زمن قطع الجزر الخاصة به والملائمة لحاله وحال الحمير .

الشيخ حارث

خيوط العمر تنساب والصحة تزول، أصبحت شيخاً يا حارث ،
كيف ومتى ؟ لا أعرف .

حين كنت طفلاً كنت أخاف من الشعر الأبيض وانحاء الظهر، ما
زلت أرى أن علامات الشيخوخة تثير الدُعر والخوف في قلوب
الشباب، فهم لا يحترمون الكبار، بل يشفقون لحالمهم ..

أهمني ساكن الخيمة الزرقاء الصبر والقوة أن أواجه ما كنت منه
أخاف . علمني أن ما كنت أظنه وحشاً يحني العظم ويثني اللحم ويُبلي
الشحم ما هو إلا شئ ضعيف، الروح منه أقوى وعليه أقدر .

للأرواح الطاهرة قوةٌ تُثني برائن الزمن، فمهما مرَّ عليها الدهر ما
تأثرت ولا تغيرت، ولأن الجسد من الطين والروح لصاحبها، والزمن
عنده غير زمن الأرض، فزمنها لا سُلطة عليه إلا لكل مردود إليها،
فالجسد لها تَبليهِه كيفما تشاء، لم أعد أهتم .

أما الروح فهي أرقى وأعظم من أن يحكمها مخلوق أقل منها شأنًا،
فلها سجدت الملائكة .

وبينما كنت على هذا الحال شعرت بوقع أقدام من خلفي تمشي
على مهلٍ، متردد أم خائف؟! أظنها مكيدة من أحد الأطفال كعادتهم .
فمنذ إعلاني الإيمان بما أنزل على نوح وأنا مطرود من القوم ..
الصحراء بيتي، والعقارب والجردان خلّاني، بين الحين والآخر يأتيني
بعض الأطفال الباحثين عن شيء جديد يلهون به، بعضهم مدفوع من
كبار القوم الحاقدين على نوح وأتباعه، والبعض صادقٌ في أمر اللهو،
فما جاء إلا من أجل المتعة . متعة مشاهدة الشيخ الكبير الخرف وإلقاء
الشتائم والنكات عليه وقذفه بالحجارة لمزيدٍ من الإثارة .

لكن وقع الأقدام من خلفي لم تكن لمجموعة من الأطفال، بل كانت
لشخصٍ واحد، يقدم قدمًا ويؤخر أخرى .

أأستدير لأعرف من القادم أم أصبر حتى يأتي أمامي!؟

لا أستطيع الصبر، وأخشى أن أنظر خلفي لأفاجئ بكومةٍ من رمل
في عيني .. اصبر يا حارث .

اقترب الغريب مني حتى أصبح خلفي مباشرة، أنظر الآن أم أصبر؟
اصبر يا حارث .. اصبر .

نظرت أخيراً لأجده يرمقني بثباتٍ، بوجهٍ صبحٍ كنور الفجر إذا
طلع، وما قال إلا جملة واحدة اهتز لها قلبي ..

- هل أتبعك على أن تعلمني مما علّمت ؟

ارتجف قلبي .. نظرت إلى السماء، ثم أرجعت إلى وجهه المليح
نظري، وكأن حارثاً آخر قد اتخذ عني القرار .

- نعم .

زافر

أشعلت أمي عيدان الحطب، وضعت فوقها طست الماء، نظرت إليّ
بخبثٍ وضحكت، فهتمت ما تريد فأطلقت لقدمي الريح، عدوت حول
الكوخ وهي خلفي كالرمح، رشيقة عريضة الجسد صارمة الملامح جميلة
القسمات ، لم تكن يوماً قاسية، لم تجبرني يوماً أن أفعل ما لا أريد أو
أطيع ..

خيّرتني في كل شيء، إلا في أكثر شيء كنت في حاجة إلى أن أصبح
فيه مخيراً !

كان الكوخ صغيراً ومتواضعاً، لكن يد مالكة أضفت عليه جمالاً
وحسناً جعلته جنة صغيرة يفوق حسنها عظمة بيوت سادة القوم .

الكوخ مصنوع من شجر الصنوبر القوي، مسقوف بالقش على
شكل هرم تبرز من خلاله بعض عيدان الحطب، بابهِ الصغير الذي لا
يفوت الجمل كما تدعي مالكة، مصنوع من الصفيح البالي تملؤه
الشقوق وكأنه وجه امرأة عجوز .

تجلس أُمي خارج الكوخ بجوار مربوط العنزة، تفرد قدميها وتباعد ما بين فخذيها، تنكبُّ على قطعةٍ من جريد النخل تمسك أوراقه تفردها وتباعد ما بينها، ثم تصفرها على شكل جدائل متقاطعة تشبه جدائل شعرها، أو تصنع منها أشكالاً أخرى عجيبة تعلقها بجوار مثيلاتها على جدران الكوخ، كانت تلك طريقتها في قتل وقتها، أما أنا فقد شُغلت بالتأمل .

وبينما كنت أنظر خلفي وأنا أجري تعثرت قدماي في الحجر الذي رُبُطت فيه عنزتي، اختل توازني وسقطت فوقها، انخلع قلب أُمي وطار عقلها، رفعتني بين ذراعيها وهي تتفحصني .

ملأت عينيها الدموع، احتضنتني بقوة بعد أن اطمأنت أنني بخير، سمعت وأنا في حضنها صوت دقات قلبها المتسارعة " أنا بخير .. لا تقلقي "، أنزلتني من بين يديها فما كان مني إلا أن انطلقت أعدو من جديد، انطلقت هي خلفي، تلك المرة كانت أسرع مني، أمسكت بي وسحبتني من ملابسي وعينا ي تدمع من كثرة الضحك .

أزالت عني ثيابي قطعة تلو الأخرى، وحينما أزالت عني آخر قطعة من ملابسي إجمر وجهي وصحت بها أن تتوقف، ووضعت يدي على ما بين فخذي موارياً إياه، ضحكت أُمي ورفعت حاجبها الأيسر ثم قالت:

- ما عندك شئ تخبئه يا زافر، إرخ يدك.

لويت شفتي السفلى وعضضت على لساني، أدت عنها وجهي ولم
أرد، لم تستطع أن تتركني على هذا الحال، ملأت بيدها اليمنى الكوز
وبيسراها أخذت تدعك جسمي بقطعة الحجر وهي تصفر وتُغني حيناً،
وحيناً تُقسم على يَغوُثَ وَيَغوُثَ أن يحفظاني من كل سوء، كان صوتك
يا مالكة جميلاً في دعانك وغنائك .

- حان وقت النوم يا زافر .

- ليس بعد، عندي سؤال يُخبرني منذ الأمس .

- أى سؤال ؟

عقد زافر حاجبيه، كانت تلك عادته حينما يستغرق في التفكير
أويستبد به التأمل .

- الأرض تحت والسماء فوقها، وبينهما مسافة طويلة، فكيف

تنطبق الأرض على السماء إذا نظرنا إلى آخر مدى البصر ؟

شعاع من الفخر والسعادة خرج من عين مالكة، ابنها ليس طفلاً
عادياً، هكذا يخبرها الجميع، عيناه تفيضان بالذكاء، طريقته في حفظ
المعلومات واسترجاعها كانت مُبهرة وعجيبة .

فصاحته إذا تحدث وفراسته إذا تفكر ورؤيته إذا تأمل، لم تكن أبداً
تدل على أنه مازال طفلاً لم يصل سن البلوغ بعد .

- سيصبح لك في قومك شأنٌ عظيم يا زافر .

- أريد أن أكون ذا شأن أمام نفسي يا أمي، فقومي راحلون .

- ومن الباقي إذا ؟

- نتاج العقل والتأمل .

ازدادت الابتسامة على وجه مالكة ولم تعقب، جذبتني إلى الفراش
فنمت في حُضنها كعادي كل يوم .

كان يوماً عادياً مر عليّ كغيره من الأيام، استيقظت من نومي باكراً،
أطعمت العنزة، ثم حلبتها وشربت من لبنها، ناكفت أمي وناكفتني،
هيمت وحدي في الصحراء، عُدت إلى الكوخ قبل الغروب، أطعمت
العنزة، أعطيت اللبن إلى أمي لتصنع منه اللبن الأبيض الذي أحبه .

كاد يوم عادي من أيام حياتي المملة أن ينتهي نهاية عادية كغيره من
الأيام، لولا ما رأيت في نومي .

فلقد رأيت فيما يرى النائم شيئاً عجبياً .

قاسم

جلستُ أمامه مُثبِتًا عيني على عينيه، لا يطرف لي جفن ولا يشرد بي
الفكر، أنظر إليه وأتأمله فقط .

أنا من المؤمنين بما أنزل على نوح إيمانًا تامًا كاملاً، لكنه إيمان
نظري.

كان إيماني بنوح كالكتابة على وجه الماء، البحر لا يستوعب ما
يُكتب على وجهه، تطويه أمواجه وتمحيه سريعًا.

لذا فقد قررت أن أقضي بعض الوقت بين رمال الصحراء .

فالرمل يحفظ ما يُخَطُّ على وجهه، لذا فالمكتوب عليه باقٍ إلى ما لا
نهاية، إلا إذا هبت العواصف فساوت سطح الرمل وأزالت عنه ما كان
عليه مكتوبًا، وتلك العواصف هي الملمات التي لا يتحملها العقل،
فيكفر على أثرها بكل ما كان يؤمن به، وهنا الفرق بين قوي الإيمان
وضعيفه .. كلاهما في محنة وكلاهما مُختبر، كلاهما تُهب العواصف على
رمال عقله، فمنهم من يبقى على إيمانه فلا تمحو العواصف ما هو

مكتوب على وجهه من كلمات، ومنهم من يفقد إيمانه ويفقد معه كلماته .

الحُب كلمات، والثقة كلمات، والعقل كلمات، والدنيا بما فيها وما فوقها وما دونها كلمات، فحافظوا على ما أوتيتم منها ما دُتمت تُحبون .

- حدثني عن إله نوح يا شيخ حارث .

- جميل يا ولدي، كل جمال في الدنيا هو جزء من كله، نور وحب ومودة، رحمته وسعت كل شيء، نوره طائل كل قلب، لا أحد مطرود من رحمته، ولا أحد محروم من عطفه ومغفرته .

- جنتك ضعيفًا يا عمي فانصحنى .

- الضعف خطوة على طريق الشجاعة يا ولدي .

- أخطأت وعصيت، وكنت قد سمعت نوحًا يقول بأن ربه غاضبٌ على العصاة .

- بل قال أنه غاضب على العصاة المُصر على معصيته .

- والماضي يا شيخ ؟ نادمْ أنا على ما اقترفت .

اعتدل الشيخ في جلسته، مسح بطرف ثوبه خيط اللعاب اللزج

الرفيع المنساب من أطراف فمه، نظر إليَّ وابتسم، ثم قال :

- يوجد خيط رفيع كالشعرة يا ولدي بين الندم واليأس، جميل أن تندم على معصيتك .. أن تحاسب نفسك، فيجلدك ضميرك على ما فعلت، ذلك طريقٌ نهايته التوبة ومغفرة صاحب الخيمة الزرقاء لك فيه مضمونة .

- لم تطلق عليه هذا الإسم ؟

- لأن عرشه في السماء كما أخبرنا نوح .

- واليأس ؟

- قنوط عن رحمته، فإن يقترف الإنسان معصية، ثم يقضي حياته كلها نادماً عليها. نادماً لا يفعل شيئاً سوى تحقير نفسه وإذلالها، هنا يصبح الندم يأساً.

يأسٌ من الحياة، ومن قبول توبة، وهنا قد يحمل اليأس الإنسان على الاستمرار في ذنبه ما دام يرى أن باب التوبة في وجهه مقفول .

- والعمل يا عمي ؟

- اعلم أنه رحيم بنا يا ولدي، وأن رحمته كالخيل الممدود ما بين الأرض والسماء، إن تعلق العاصي به نجاً، وسل نفسك .. لم

أمرك ربك بالاستغفار والتعلق بحبل التوبة إن لم يكن سيبسط
لك ذراعيه بالمغفرة ؟

- وكيف أتأكد أن الله قد قبل التوبة ؟

- سترى الإجابة في عيون من أحببت، اجث عن الإجابة في
عيون أحبابك .

آدم

الحب يطرد الحزن والهم يا آسيا، فلمَ لم تطاردني الأحزان ويثقل بها قلبي وتحتقن بما روحي إلا حين أحبتك ؟

يكاد قلبي ينفطر .. أجلس الآن بجوارك، أنظر اليك والحسرة تفتت روحي وتهد عظامي، أضع يدي على ظهرك المشدود بعصبية فيلين قليلاً، أداعبك فتنمعين في البداية، ثم ترضين وتقترين مني، تنامين على صدري .

- أتلوميني يا آسيا لأنني خائفٌ عليكِ من الهلاك والنار ؟
- ألومك لأنك تفرض عليّ الإيمان فرضاً، ألومك لأنك ترى أن لا صواب إلا رأيك .
- اندفعت وعلا صوت لأني أحبك، أيلام المرء على خوفه على الحبيب ؟
- يُلام المرء على إيمانه بما هو غريب .

الغريب يا آسيا هو الإنكار والرفض لجرد الإنكار والرفض، فكري بعقلك ولو قليلاً، انفضي عنك غبار الجهل وغشاوة العناد .

من الذي خلق الأرض بمن عليها والسماء بما دونها وفوقها ؟ ومن الذي زرع حُبك في قلبي وجعل روحي معلقة بك كغريقٍ في بحار من التيه وعيناك مرساه ؟

الرب موجود يا آسيا، أصله موجود في مكان لا نعلمه، ونوره محدود في قلوب كل خلقه .

ابتسمت آسيا بسخرية ونظرت إليّ كالحصم الذي أمسك على خصمه خطأ كان ينتظر وقوعه فيه .

- وأين نوره من قلبي ؟

- لن يصل إليك، لأنه لا يبلغ الجاحدين .

انتفضت آسيا وأبعدت رأسها ويدها عن صدري، فشعرت بالبرد يعتصر جسدي، أحبها رغم كل شيء، نظرتُ إليّ نظرة اختلط فيها الكثير من المشاعر، علا صوتها عن الحد المألوف وهي تقول :

- الجحود هو أن يستيقن قلب المرء الحقيقة، وينكرها عناداً منه وتكبراً، أما أنا فلا أؤمن بشئ على الإطلاق، وإن كنت أؤمن

بجك فقط يا آدم، آمنت أن الحب هو سبب وجودنا وسر
خلقنا، وعلمت أنه يكفيني يا آدم، آمنت بـجـك وكفرتُ بكل
شيءٍ دونه .

أطرقتُ حين رأيت أمواج الدموع تتقلب في عينيها، قُلت وأنا أربت
على كتفها :

- خلق ربُّ آدمِ آدمَ، وأحبَّه وأرادَه أن يُحبَّ فخلق له من ضلعه
حواء، ثم خلق آدمَ آخر وأراد له الحب فخلق له من روحه
آسيا، أنا أحبه لأنه خالقنا، وأحب مخلوقاته لأنهم مخلوقاته لا لما
فيهم من جمالٍ. يكفيهم عندي جمالاً أن فيهم من روحه، قومك
على ضلالهم خيرٌ منك يا آسيا، هم على الأقل بحثوا عنه،
استشعرت قلوبهم أنه لا بد من وجود خالق للكون، وأنه ليس
هناك أي احتمال أن يكون وجودهم على الأرض مجرد صدفة،
حاولوا وضلّوا الطريق، أما أنتِ فقد حرمتِ روحك حتى مُتعة
السير في طريق البحث .

- هم حقّروا من شأن الخالق وعبدوا من دونه أصنامًا، وأنا أنكرت
وجوده، كيف تقول أن الإنكار أبشع من التحقير ؟

- المشركين عندي خيرٌ من المنكرين، فالمشرك قد عمل بأمر خالقه
وتدبّر في الكون، أما المنكر فلم يفعل .
- كفاك نُصحًا يا آدم .
- أزحتها عني برفق، وقُمت أرثدي ثوبًا ثقيلاً ..
- إلى أين تذهب ونور النهار لم يطلع ؟
- سأخرج قليلاً، لا رغبة عندي في النوم أو البقاء في الكوخ .
- وعند باب الكوخ وقفت ونظرت إلى عينيها الجميلتين، سحبت
نفسًا طويلاً إلى صدري ..
- المحب لمن يُحب ناصح يا آسيا .
- والمحب بمن يحب رفيقٌ يا آدم .

زافر

كان الوقت فجرًا، رمادي اللون، فاصل بين نهایات الليل وتباشير النهار، ابتسامة خفيفة تتلمس طريقها في ظلام الغرفة، فينفرج جانب شفتي الیمنى قليلاً .

طعمٌ حلو كقطع العسل شعرت به على طرف لسانی مستمرًا لا ينقطع ولا يعتاده اللسان فتقل حلأوته .

وبین كل ذلك رأیت العجب، كانت عینای رعم أنهما مُغلقتین تریان كل شئ .. تفاصيل الكوخ تظهر أمامي كما اعتدتها، كل شئ في موضعه، أسمع صوت أنفاس أُمي النائمة جوارى وأشعر بحرارة جسدھا تدفئ ظهري .

اعتادت عینای - المغلقة المفتوحة - الظلام أكثر من ذي قبل، دقت النظر إلى جانب الكوخ الأيمن، على المصطبة الصغيرة التي أحب الجلوس علیها، فإذا بي أشاهد أشباحًا غريبة تتحرك وتهتز، وصوت خفيض جميل يردد كلماتٍ لا تكاد تصل إلى أذني، اشتد بي الفضول

فقت من مكاني، اقتربت أكثر من مكان الأشباح، وهي في مكانها ساكنة واقفة لا تتحرك، فقط مرصوفة على شكل حلقة واسعة، لا أرى مركزها من موضعي هذا،

اقتربت قليلاً حتى بلغتهم، وكأني طيفٌ غير مرئي مررت بجوارهم، الآن أستطيع أن أرى ملامحهم واضحة أمامي، ابتساماتٌ كقناديل نورٍ تخرج من أفواههم تبدد ظلام الغرفة، تبعثر العتمة وتُحل مكانها ضياء أبيض مُريح . أفسحوا لي مكاناً بجوارهم داخل الحلقة، وقفت مزهولاً مما أرى .

رأيت نوراً، لم أر مثله من قبل، جسم بيضاوي الشكل من نور أزرق. تصدر عنه تمتمة بكلماتٍ بدت الآن واضحة بعض الشيء، كان يُصَلِّي لإلهه .. لكن بطريقة عجيبة، كان يدعو ويُنبِّد بصوت خفيض خاشع .

انفض قلبي لحلاوة ما أسمع، كلمات غريبة، وصوت لم أسمع له من قبل مثيلاً، ازداد طعم العسل على طرف لساني، واتسعت الابتسامة على طرف شفقي اليمني، أنت تحلم يا زافر .

لكنه حلمٌ جميل، وليته أبداً لا ينتهي .

- تعال يا زافر، اجلس بجوار حبيبيك .

- أنت تعرفني ؟
- عُشاق الرب يعرفون بعضهم يا ولدي .
- ربُّ مَنْ ؟ فهم كُثْرٌ .. أتقصد وِدًّا وسُوءًا ويَعُوْثَ وَيَعُوْقَ وَنَسْرًا؟
- بل أقصد رب هؤلاء جميعًا .. ربي وربك .
- يعوث يا ولدي لم يكن وغيره ممن يعبد قومك إلا أناسًا صالحين من مَنْ خُلِقُوا ومَنْ عَلِيَهُم بِالْإِيْمَانِ وَالْحُبَةِ .
- عاشوا حياةً صالحةً، ثم ماتوا كما يموت كل البشر، وتخليدًا لهم فقد أقام لهم القوم تماثيل حتى تتذكروهم الأجيال القادمة .
- ومع توالي الأجيال أصبحت هذه التماثيل من مقدسات القوم، ثم تحوّلت من مقدسات إلى معبودات .. أصبحوا يسجدون لها ويدعوونها .
- تقصد أن قومي يسجدون إلى بشرٍ مثلهم ؟ وأن أُمِّي تعبد بشرًا وتُقسِمُ عليه أن يحفظني من كل سوء ؟
- نعم، فالبشر أمرهم غريب حينما يتعلق الأمر بالمقدسات، سيأتي عليهم زمنٌ يعبدون فيه الحيوانات بدلًا من الأصنام، وأزمان

أخرى كثيرة سيكون أمر البحث عن الخالق بالنسبة إليهم رفاهيةً
لا وقت ولا حاجة لهم فيها، سيرثون الدين عن آبائهم،
يسخرون ويُشككون في كل من إتخذ معرفة ربه والبحث عنه
منهجًا لحياته .

اتَّبِعْ نوح يا زافر واركب معه السفينة، تكن من الناجين، وسل
مالكة عن أخيك .

- هل لي أخ !؟

لم يردّ .. وهنا انتهى الحلم . قُمت من نومي مشتتًا بين الفرح والحزن
مطمئن القلب بما رأيت، فزعًا مضطربًا لما علمت .

حب ومودة ممدودة ما بين الأرض والسماء، نوره لا حد له، وعلمه
فاق كل علم، ورحمته وسعت كل شيء .

هكذا يقول بيت النور واصفًا إله نوح، وإن كان ذلك النور الذي
قد يذهب بصر من أطال إليه النظر، فكيف يكون نور خالقه، وخالق
كل نور، وأصل كل ضوء ؟

اسأل عن أخاك يا زافر .. مَنْ أخِي ؟ ما أخفت عني مالكة شيئًا
قط، فكيف لا أعلم أن لي أخًا ؟ وأين هو إن كان موجودًا ؟

يوصل الصوت المليح الطواف داخل ثنايا عقلي وأرجاء جسدي .

كلماته .. ماذا كان يقول ؟

أخذت أهمس بصوت خافت بما كان يقول، استوعب عقلي ما قاله
وحفظته عن ظهر قلب، لم يكن مجرد حلم يا زافر، كانت دنيا غير
الدنيا.

قاسم

أجلس شارد الذهن على صخرة كبيرة خارج الكهف، أفكر في تلك
الأسئلة الكثيرة التي تحيرني منذ آمنت بما أنزل على نوح ..

لماذا لم يخلقنا ربنا جميعًا مؤمنين به، مصدقين بوجوده ؟ لماذا أراد أن
تختلف قلوب عباده من حيث الإيمان به ؟

وكيف يريدنا أن نبحت عنه ؟ هل القلب وحده يهدي المرء أم أن
طريق العقل أيضًا آخره نور ؟

قالت لي أختي أني سأخسر الكثير إن اتبعت نوحًا .. " لن يكون
لك بيننا مكان من اليوم يا قاسم، عليك الاختيار، إما أهلك وأرضك
وإما نوح " .

أنا لم أوثر نوحًا عليهم، بل آثرت عليهم وعلى نفسي رب نوح وربهم
ورب كل شيء، علمت بأن قاسم يومها قد مات، وأن روحًا جديدة قد
حلّت في جسده .

أبكي دائماً كلما تذكّرت صفة أبي علي وجهي، وغضب أُمي عليّ،
كلما تذكّرت الحقد في عين أختي .

أبكي على حالهم لا على حالي، أبكي لأنهم أغلقوا على الإيمان
طريقه إلي قلوبهم، أبكي لأن الله يبسط إلى خلقه يده بالمغفرة فيجحدون
ويتكبرون .

أبكى عليّ أبي الذي وضع أصابعه في أذنيه حين جاءه نوح يحدثه
عن ربه، حين جاءه نوح ينصحه بألا يسجد لتمثال من الحجر، وأن
يتأمل الكون ويبحث عن الحقيقة .

شعرت بوقع أقدام الشيخ حارث من خلفي، جاء الشيخ الطيب
ووضع يده على كتفي، جلس أمامي وكأنه يقرأ ما أفكر فيه .. قال :

- لا تتعجب ممن وضع العذاب هدفاً أمام عينيه . ألم أخبرك يا
ولدي أن ربك يصطفي عباده ؟ وأنه كما خلقنا على درجات
متفاوتة من العقل والإدراك، فهو أيضاً لن يحاسبنا بنفس الميزان .

- هل هو قريب يا عم حارث ؟

- أقرب إليك من نفسك .

- لماذا إذاً يجعل بيننا وبينه رسلاً ؟

يصمت الشيخ قليلاً، يسند بكفه جبينه، يقول مستسلماً :

- لا أعرف .

- أين أبحث عنه يا عمي ؟

- إياك يا ولدي أن تبدأ رحلة بحثك عنه حولك، عمق حبه في روحك أولاً وهي وحدها ستعرف إليه الطريق، فالروح يا ولدي تنتمي إليه، لذا فهي تعرفه، ويكون الوصول إليه من خلالها يسير .

- وأيهما يصل بالإنسان إلى المعرفة .. العقل أم القلب ؟

- يحتاج المرء أن يفكر بقلبه ويشعر بعقله، إذا كان الأمر متعلقاً بالدين .

استقبل العلامات بقلبك، واملأ بها روحك، ثم فكر فيها بعقلك كيفما تريد .

- لماذا اعتزلت قومك يا عمي ؟ لمّ لم تنصحهم ؟

- العباد يا ولدي نوعان، كل منهما غايته أرضاء ربه وإشباع روحه وإسعاد نفسه.. نوع قدّم النفس على الغير، انشغل بأمر نفسه فقط، يرى أن ربه يهدي من يشاء ويخص بنوره من يريد، هؤلاء

يكتمل شعورهم بالرضا عن النفس بأن يعتزلوا الناس بما فيهم
من خير وشر، يقطعون ما بينهم وبين الناس ويوصلون حباهم
بإله الناس فقط، يتخذون باعتزال البشر والاستئناس بنور ربه
وحده منهجًا للعبادة وأسلوبًا للحياة .

- أحسبك ممن يتبع هذا المنهج يا شيخ .

ابتسم الشيخ وقال:

- أحسبني كذلك أيضًا .

قمت من جلستي، نفضت عن ثوبي التراب وقلت مازحًا :

- إذا فأنا لست مُرحبًا بي هنا .

ضحك الشيخ، كانت تلك أول مرة أرى ضحكته وأسمعها،
ضحكته جميلة ولها صدى مميز .

- لا يُخرج المرء من عُزلته سوى الحب .

من اختار أن يعتزل الناس بكامل إرادته لا يحمله على التراجع
عما كان عليه عازمًا إلا أن يهديه ربه من يحبه فيه .

ضحكت ورقص قلبي فرحًا لما سمعت، الشيخ حارث يبك يا
قاسم، اختار أن يخرج من عزلته لأنك جئت إليه، أبوك صفحك على
وجهك، وحارث مسح على قلبك .

همست لنفسي:

" لا يسلبنا الله شيئاً، إلا أهدانا خيراً منه "

- حدثني عن النوع الثاني من العباد يا شيخ .
- النوع الثاني يا ولدي هم ورثة الرسل، من يرون أن اكتمال الروح وإسعادها لا يتحقق إلا بنشر الدعوة بين البشر .
- وأيهم خير ؟
- لا فضل يا قاسم لأحدهما على الآخر، لكن النوع الثاني خطر وقوعه في دائرة الغواية والغرور والتنفع من الدين أكبر، لذا فهم إن صبروا وأخلصوا فأجرهم أعظم .
- قُمت من جلستي، قبلت يد الشيخ وهممت بالدخول إلى الكهف،
خطوت بضع خطوات ثم توقفت ونظرت إليه قائلاً :
- أنا أبكي كثيراً على حال قومي يا عمي، أبكي كثيراً، لكني أبدا لا أندم على إيماني بالله .. وحتى إن كان الثمن موتي، فالموت في سبيل الحق حياة .

مالكة

قُمت من النوم على صوت خطوات منتظمة تتحرك داخل الكوخ،
وكأن نور الصُّبح قد بزغ، وصوت همهمة صافية يأتي من جانب الكوخ
ناحية المصطبة التي يجب زافر الجلوس عليها، مسحت براحة كفي على
وجهي ودعكت عيني بأطراف أصابعي، دققت النظر، فأصابني الدهول
لما رأيت وسمعت .

زافر واقف على المصطبة، تكاد رأسه أن تلامس سقف الكوخ
المصنوع من القش، يفرد ذراعيه على طولهما، ويدور حول نفسه بطريقة
عجيبة . كان المشهد غريباً عليّ .. لم أستوعب ما يحدث ولم أفهم ما
يقوم به، كان المنظر كفيلاً بأن يطرد عن جسدي بقايا النوم المتعلقة به،
زافر يقول كلاماً غريباً، تشبه الأناشيد التي أحبها وأغنيها له منذ صِغره،
دققت السمع وأمعنت النظر، وحينما أدركت وفهمت .. انتفضت .

كان زافر مُغمض العينين، منير الوجه، مبسوط القسمات، كأنه في
دنيا غير الدنيا، وملكوت آخر غير الملكوت .. يردد :

أسبح بحمدك وإليك أتضرع

لا لبشر ولا دنيا ولا أصنام .

لم أشعر بأى شئ مما فعلت، لم أشعر بجسدي وكل جزء فيه
ينتفض، ولا بقدمي وهي تسابق الريح لتصل إلى جسد زافر، تقطع
المسافة في قفزتين، ولا بيدي وهي تمتد إلى وجه زافر بصفعة الخلع لها
قلبي .

نزلت الصفعة على وجهي لا على وجهه الصغير .

وكاننى أعاقب أذني لجرد أنها سمعت مثل هذا الكلام، أصنام يا زافر؟!
آهتي وآلهة أبيك الذي أفنى عمره كله عابدًا لها، شاكراً لفضلها،
محببًا لأمرها أيًا كان، تقول عليها اصنامًا ؟

ذُهل زافر من الصفعة التي تركت أثرا واضحا على وجهه، كالعائد
من عالم آخر نظر إليّ .

- ماذا كنت تقول ؟

- لم أكن أقول، كان هو القائل، وما أنا عنه إلا ناقل .

- من هو ؟

- بيت النور .. الذي يعرفني لأنني مثله .

لم أكن أصدق ما أسمع ولا أستوعبه، كانت الأحداث كثيرةً على عقلي .. كان جسدي ينتفض بعنف كمن سقط في حفرة تسكنها العقارب .

- هل تكلمت مع خالك ؟ هو من أثر على عقلك وأقنعتك بما يؤمن به من جنون ؟

وقبل أن يرد على سؤالي قاطعته . لا أريد أن أسمع المزيد من كلام سمعته من قبل على لسان أخي، لا أريد أن يكون مصيرُ ابني كمصيره، منبوذًا من قومه، محرومًا من عطف الآلهة ورضاها .

- أصابك الجنون يا زافر ؟ تريد أن تؤمن بما لا ترى ؟

- أن أعبد من يراني ولا أراه خيرٌ عندي من أن أعبد ما أراه ولا يراني.

ثم أني لم أومن بشئ بعد ولم أتخذ قرارى . أنا فقط أفكر وأزن الكلام والأفكار، أقارن فكريكم بفكر نوح، أهتكم العديدة بإلهه الواحد، طريقتكم فى العبادة وطريقته هو وأتباعه، أقارن وأفكر وأتأمل، ثم أحدد بمن أومن .

- ليس لك اختيار فى شئ، ستؤمن بما آمن به أبوك وأبنى عمره من أجله، ستؤمن بما أومن أنا به .

- أين أخي يا أمي ؟

لدغة أخرى يا مالكة، غصة جديدة في حلقك، سكين آخر يشق قلبك، لم أكن أبدًا قد أخبرت زافر بأمر أخيه ولم أكن أنوي أن أخبره .

- بمن حلمت يا زافر !؟

كيف عرفت بهذا الأمر ؟ كان هذا سرًا بيني وبين أبيك، كان هذا هو شرط القبول .

- أخبرني بيت النور، نصحتني أن أسألك عن أمر أخي وحينها سيهديني عقلي إلى الصواب .

- لا أستطيع أن أخبر أحدًا بما كان، اذا أخبرتك فلن تطرح لي الآلهة فيك الخير .

- وإن لم تخبرني فسيطرح بيت النور في روحي حُب إلهه وسأتيقن أنه على حق .

أفلتُ جسده الضئيل من بين يديّ، مشيت باتجاه باب الكوخ، وقبل أن أخرج التفتُ ناظرة إليه، ألمني الدم السائل من شفثيه المنتفخة، تماسكت وحبست دموعي، ربّعت قدميّ أمام العنزة وبدأت أستعطف ثديها حتى لانت وخرج اللبن منها، أخذت أحلبها واللبن ينزل على الأرض، نسيت أن أضع تحتها إناء الفخار .. كان عقلي مشتتًا .

ممرقة أنا بين أمرين كلاهما عليّ مُر، أخبرني صوفسياؤوس أن شرط
القبول هو الكتمان، وأن إفشاء سر القربان يُفسد النية ويجلب
الغضب.

أأخبره بأمر القربان علّه يقتنع ويبقى ؟ أم أخفي عنه فيرحل عني
وأحرم منه ما حييت، فلا حياة له معي إن هو آمن بنوح، ولكن اذا
أخبرته فقد تغضب عليّ الآلهة وتحرمني منه أيضًا .

جلست بضع ساعات أفكر وأزن الأمور بميزاني العقل والقلب،
العقل يقول بأن زافر عنيد، ما أصر على شيء إلا نفّذه، والقلب يأمرني
بأن أطيع آلهتي .

بعد أن انقضى على جلستي وقت طويل، قُمت ودفعت باب
الكوخ بقدمي، بحث عنه بعيني حتى رأيته جالسًا على المصطبة، ينظر
من الفتحة الصغيرة إلى الصحراء الممتدة أمامه بلا نهاية .

قلت :

- لقد قررت - إرضاءً لفضولك - أن أخبرك بأمر أخيك، ولكنك
مازلت لا تملك الحق في أن تقرر شيئًا .

قاسم

الناس في أمر الدعوة إلى ربهم نوعان، هكذا قال لي الشيخ حارث..
فأي النوعين أنت يا قاسم ؟ أترضى أن تعيش منبوذًا من قومك،
تاركًا إياهم على ما هم فيه من ضلال ؟

كيف ترضى أن تُكمل حياتك على هذا الوضع يا قاسم ؟ استفت
قلبك كما يقول حارث، واجعله ميزانك، ولنرَ إلى أى الأمرين يميل،
الصمت أم الكلام .

نمت على جانبي الأيمن، وأرخيت رأسي على كفي، وذهبت في نوم
عميق .

نامت جوارحي كلها، ولم ينم قلبي .

وأثناء نومي اختار قلبي طريقه، وجاءني منه الأمر.. رأيت نفسي
واقفًا على مصطبة عالية وسط السوق، وحوالي عيون كثيرة تنظر إليّ
بغضب ..

غداً يوم السوق الذي يُعقد في الساحة الكبيرة الواقعة في منتصف
البلدة، حول تمثال أكبر آلهة قومي، وفي حضرته .

قُمت من نومي، نظرت إلى جوارى فرأيت الشيخ حارث نائمًا على
ظهره كعادته، ملت عليه قليلاً، قبلته على جبينه قبلة طويلة دافئة، فتح
الرجل الطيب عينيه ونظر إليّ وعلى وجهه بشاشة ورضا ونور، وعلى
جانب فمه خيط رفيع من اللعاب يسيل ..

- أكمل نومك يا عمي، فغداً يوم طويل وعصيب، تحتاج إلى بعض
الراحة .

لم يفهم الرجل ما أقصد، ولا أنا فهمت، فقط نظر إليّ طويلاً وعلى
وجهه مازال نور ابتسامته مشرقاً يغطي الظلام ويبعد الوحشة ويثير في
نفس الناظر إليه الفرح والاطمئنان .

- قدمي تؤلّنى يا قاسم .

جلست تحت قدمه، وفردت ساقه على كتفى وأخذت أدلك رجله
من الساق إلى الأصابع بلين ورفق، ولما سمعت صوته يغط في النوم،
قبلت قدمه ثم قُمت من تحتها وأمسكت بلوح خشبي كبير وأخذت في
الكتابة .

مالكة

جلست أمام زافر أرتب افكاري، أمسكت يده اليمنى بين يدي،
نظرت إلى عينه للحظة، ثم شردت وكأنني قد سافرت إلى عالم آخر
بعيد، وأخذت أحكي .

كانت الآلهة هي سر حي لأبيك، ليس فقط لأن كلينا كان يعبدهم
بقلبه وجوارحه مخلصًا لهم طالبًا رضاهم دون خوف من عذاب أو طمعًا
في عطاء، كنا نحبهم لأنهم خلقونا، ولأنهم زرعوا في قلوبنا الخير، كنا
نحبهم لأنهم يستحقون منا الحب .

وكان من علامات حب الآلهة لأبيك أن وهبته القدرة على نحت
صور حية من صخور جامدة . فاستغل هذه الموهبة في صناعة تماثيل
للآلهة، إكرامًا لفضلهم عليه .

قابلت أباك في الساحة الكبرى، لم أعلم لم قادتني قدمي إلى هناك رغم أن ذلك اليوم لم يكن يوم السوق، وعادة ما تكون الساحة خالية وساكنة في تلك الأيام التي لا يبيع فيها ولا شراء، لعل قدمي قادتني إلى هناك لأقابل أبيك .

وحيداً كان ينحت تمثالاً لسواع أحب الآلهة إلى قلبي وقلبه ..

دنوت منه وكأن قدمي تُقاد إليه بقوة أعظم من قوة العقل والجسد، وكما أحببت التمثال قبل أن يكتمل نحتي، أحببت أباك قبل أن أعرف حتى اسمه أو أرى وجهه، اقتربت منه .. وحين أصبحت خلفه، لا تفصلني عن ظهره سوى خطوات قليلة، أدار إليّ وجهه ..

حين نظرت إليه، أخذني جماله، ابتسم لي للحظة، ثم وكأنه قد نسي أمر وجودي انهمك مرة أخرى في نحت تمثاله .

جلست أراقبه عن قرب وهو ينحت، كان مستغرقاً فيما يفعل، وافقاً بنبات، مشدود العضلات، يندى جبينه بقليل من العرق وكثير من النور.

مضت علينا ساعة طويلة، لا أنا مللت المراقبة ولا هو ملّ العمل، وكانت الساعة ستمتد لولا أن روح النهار كانت تنتفض ليخرج من رحمه الليل، ذهبّت عنه دون سلام وروحي كشمس المغيب .. تنتفض .

بَكَرَتْ فِي الإِسْتِيقَاطِ فِي صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِي، غَادَرَتِ الكُوخَ مُتَجَهَّةَةً
إِلَى حَيْثُ رَأَيْتَهُ بِالأَمْسِ، وَفِي يَدَيْ قُفَّةٍ كَبِيرَةٍ بِهَا قِطْعَتَيْنِ مِنَ الجُبْنِ وَبَعْضَ
العَسَلِ وَقَلِيلٍ مِنَ اللَّبَنِ .

وَصَلَتْ .. وَاقْتَرَبَتْ .. وَلَمْ يَشْعُرْ هُوَ بِوُجُودِي، دَنَوْتُ أَكْثَرَ ثُمَّ قُلْتُ
شَيْئًا عَنِ مَدَى جَمَالِ التَّمَثَالِ .

بَرَقَتْ عَيْنَاهُ وَانْتَشَى بِمَا قُلْتُ، لَكِنَّهُ اكَتَفَى بِالأَبْتِسَامِ رَدًّا .

عَيْنَاهُ جَمِيلَةٌ، تَزِيدُهَا جَمَالًا تِلْكَ التَّجَاعِيدُ الرِّقِيقَةُ المَرْسُومَةُ عَلَي
جَانِبَيْهَا إِذَا ضَحِكَ .

- أَنَحْتُ فِيهِ مِنْذُ شَهْرٍ، أَوْشَكْتُ عَلَيِ الاِنْتِهَاءِ مِنْهُ وَهَذَا شَيْءٌ يُفْرِحُ
وَيُيَكِّي فِي نَفْسِ الوَقْتِ .

- احضرت لك بعض الأكل، أتمنع أن نأكل سوياً ؟ فأنا لم أفطر
بعد، وأظنك انشغلت بالبحث عن الأكل .

- حين ينشغل المرء بحلمه، يزهد جسده ما هو أدنى منه .

نظر إليّ مطوولاً لأول مرة .. سألني :

- ما اسمك ؟

- يناديني قومي مالكة، أما أنت فمهما كان الاسم الذي يطلقه عليك قومك فأنا لا أريد أن أعرفه، فاسمك عندي من اليوم "عابد".

اتسعت حدود ابتسامته، وزادت معها التجاعيد حول عينيه، وتوقف قلبي عن النبض وأخذ يرقص .

مرت سبع شهور على زواجي من أبيك، لم يكن قد انتهى من نحت تمثاله بعد، وذات يومٍ رأيته يدخل الكوخ جرياً وكأنه يسابق الريح، كان الفرح يفيض من عينيه، وقفت من جلستي استقبله وأسأله عن سبب سعادته، ضمني بين ذراعيه بقوة ثم أرخى يديه بسرعة متذكراً انتفاخ بطني ..

هدأ قليلاً وبلع ريقه ثم لفّ حول نفسه وقال :

- أنهيت التمثال يا مالكة، الحلم أصبح حقيقة .

انتقلت النشوى منه إليّ، فقفزت فرحاً واحتضنته .

- على مهلك يا مالكة، فبطنك ممتلئة .

- بمناسبة ما في بطني يا عابد، ألا ترى أن تمثالاً عظيماً كهذا لا

يستحق منا إلا قُرْباناً عظيماً ؟

قطب عابد حاجبيه مستفهمًا، فلم يكن قد خطر على باله أمر
القربان من قبل . أما أنا فالموضوع كان يشغل بيلي كثيرًا .

فكثيرًا ما فكرت في أمر القربان الذي سنقدمه أنا وعابد إلى أقرب
الآلهة إلى قلوبنا، وكان قلبي قد استقر واختار .

أشرت إلى بطنى الممتلئة وقلت :

- الغالي لا يهدى إلا غالٍ يا عابد .

الشيخ حارث

فتحت عيني والشمس في وسط السماء، قمت من نومتي وجلست
على طرف الفراش .

- كان حلما غريبا يا حارث .

قاسم يقف أمامي يتأمل نومتي، ثني جزعه ومد وجهه وقبل جبيني،
ثم جلس تحت قدمي وأخذ يدللكها حتى ارتحت وغلبني النوم، نوم على
نوم يا حارث؟! أكان هذا حلماً أم حقيقة؟

ناديت قاسم لأقصَّ عليه ما رأيت، علَّه شاركني الحلم كما يشاركني
كل شيء منذ جاء إلي .

أحبَّه قلبي منذ أن وقعت عليه عيني، وكأنه قد حرَّك سكون الماء
الراكد داخل بئر أحرابي .

جعل ماء الحياة بداخلي يتلون ويتحرك، وأصبح مذاقه عذباً بعد
أن كان مالحاً، أصبح قاع البئر مشرقاً بنور الحب .

وليس في الحياة أجمل من أن تُهدى من يُخرج قلبك من الهم إلى
الفرح، ومن اليأس إلى الأمل، ومن الظلام إلى النور .

فالحُب آية الحبين .

لم يجب قاسم ندائي، قمت متثاقلاً في عيني وجسدي بقايا نُعاس
وكأنني قد نمت عامًا كاملاً .

النوم إلى جوار الحبيب سكينه وسكون .

كررت النداء وقاسم لا يجيب ..

خرجت إلى باب الكهف وناديته فلا عيني رآته ولا أذني سمعت تلبيته
للنداء، عُدت إلى الكهف، وحين نظرت إلى يساري رأيت لوحًا خشبيًا
كبيرًا محفورًا عليه كلمات بخط موج صغير لكنه واضح:

"صاحبي وأنيسي والنور الذي أضاء لي الطريق .. أشعر بأن ربي
يختار لي طريقى ويرسمه يا شيخ، وأنا بما أراه لي راضٍ، وعلى ما أمرني به
قلبي سأسير، أعلم أن حديثي معهم لن يحل عن قلوبهم عقدة الجهل
والكفر، لكني ومع ذلك سأكلمهم .

أعلم أنهم قد يقتلونني دون أن ترأف بي قلوبهم، ولكن قلبي بهم
رؤوف، لعل قلوبهم بعد قتلي تلين، لعلهم يرحقون مع جسدي ما في
أجسادهم من الكره والجهل والعناد ..

لعل قلب أمي يرضى عني، ولعل نار الغل تنطفئ في قلب أختي،
حين أمرني نوح بأن أمكث عندك حتى يأتيني اليقين تعجبت من نُصحته،
مكثت معك ما مكثت لم أجد فيك عيبًا ولا رأيت منك السوء، لم أجد
فيك إلا الطهارة والبصيرة، تعلمت منك الحُب يا عمي وهذا ما أريدك
أن تعلمه للناس من بعدي ..

اخرج من صومعتك يا شيخ، فبأمثالك تُعمّر الأرض .. لا تعتزل
الناس

لا تخف علي ولا تغتم، وحين أموت اذكري يا عمي، فليس غيرك
يعرفني حق المعرفة .

قديمًا قلت لي أنني إن أردت أن أتأكد أن ربي قد غفر لي ذنوبي
فعلي أن أرى ذلك في عيون أحبائي، أنت الحبيب والمرأة يا عمي،
وفيك رأيت مغفرته وكرمه "

كمن ذهب عقله وضعت اللوح على الفراش، وجريت خارج
الكهف حافي القدم مبلل الجفن والعين، وطول الطريق يغم بصري
بالدموع فأمسحها بطرف قميصي لا أعرف إلى أين أذهب ..
توقفت عن الجري، عزمت أمري وأكملت العدو متجهاً إلى القرية
. أدخلها بعد عزلة دامت خمسين سنة .

زافر

سمعت ووعيت وليتني ما سمعت ولا وعيت ..

لكنني فهمت وعلمت إلى أى حد قد يصل بالإنسان الجهل، وأن المصائب كلها تكمن في قلب يؤمن بشئ، يستغرق فيه ويملاً به أركان حياته، دون أن يفكر فيه أولاً .

أى إله هذا الذي سيرضى أن يقتل أحد خلقه تحت قدميه؟! ولم؟
ما ذنب من قُتل قبل أن يولد؟ أى إله هذا الذي تؤمن به مالكة؟

أنا أيضاً أؤمن بوجود إله، فالإنسان لم يخلق ليأكل ويشرب ويتزوج ويُنجب نسلاً يأكلون ويشربون ويتزوجون، ثم يموتون جميعاً وتأكل أجسادهم ديدان الأرض التي ستموت هي الأخرى في النهاية .

لا بد من وجود سبب للحياة، لا بد من وجود سر ما، قوة عليا تراقبنا وتُسجل أفعالنا، حياة أخرى غير تلك التي نعرفها .

حياة تُحاسب فيها على ما فعلناه، فإن لم نكن سنحاسب علي أفعالنا، فإنه من العبث أن نقوم بما من البداية، لا بد للظالم أن يحاسب

على ظلمه، وللمشرك أن يحاسب على تقصيره، وللكافر أن يحاسب على جحوده، هذا ما يجعل للعدل والتوحيد والإيمان قيمة .

ولابد أن يؤمن المظلوم بوجود من هو أكبر وأقوى من ظلمه، وإلا أصابه الجنون، لا بد له من أن يبث همه وضعف حيلته إلى إله ما، وأن يتخذة حسيباً، ويكتفي به شاهداً ورقيباً، ولابد من وجود هذه القوة فعلاً .. ولابد لتلك القوة أن تكون على قدر ما يظنها المظلوم من العدل .

هذه هي الحياة التي أوّمن بها، أما حياة اللا إله واللا قدر فتلك حياة لا تليق ببشر .

إله مالكة ليس هو الذي حدثني عنه بيت النور في المنام، ولا هو من أوّمن بقوته وعدله ورحمته .

الرحيم لا يأمر الناس إلا بالرحمة .

الرحيم لا يأمر البشر أن يقتلوا أبناءهم تحت قدميه إرضاءً له .
الرحيم لا يأمر أماً أو أباً أن يقتلوا أبناءهم تحت قدميه، ويقف هو متفرجاً فرحاً بولائهم التام إليه .

والفرق بين إله نوح وما يعبد قومي واضح كالشمس إذا طلعت، فهذا من صنّع البشر وتلك من صنّع البشر .

نظرت إلى أمي وكأنني أول مرة أراها .

أهذه المرأة القتالة هي أمي ؟، تلك التي وضعت وليدها تحت قدم الصنم، وقطعت عن جسده رأسه، ومسحت بدماء الطفل أحجار الصنم، ثم حفرت قبراً إلى جوار قدمه ودفنته ..

تلك التي كانت لتفعل معي نفس ما فعلت لو كان قد كُتِب لي أن أكون أول ما يتكوّن في أحشائها، كيف للعقل لهذا الحد أن يُغَيّب ؟ أهذه أمّ ؟ أهذا إلهٌ ؟ أين أنت يا خالي ؟ أريدك أن تحدثني عن إهلك وإله نوح .

اقتربت مالكة مني .. قبضت بيديها على كتفي وهزّنتني .. قالت :

- ما لك تنظر إليّ تلك النظرة ؟ أنا لم أفعل إلا الصواب، قدمت إلى إلهي قرباناً أحب إليّ من نفسي، كي يرضى عني ويزرع الحب والسعادة في حياتي مع أبيك، كي يجعل لي فيك الخير .

- الآن عرفت لماذا نصحني بيت النور أن أسألك عن أخي، كان يعلم أن عقلي سيهديني إلى الحقيقة بعد أن أعرف ما قُمت به، الآن عرفت الفرق يا أمي .. والآن اخترت طريقي .

جحظت عيناها وانتفخ وجهها بالغضب، زعقت بصوت هدّ جدران

قلبي :

- ما طريقك إلا طريقي وطريق أبيك وأجدادك .
- لن أطيع إلا عقلي يا أمي، لن أعبد إلا من أمرني قلبي أن أعبد، ولن أسجد إلا لمن أمرني قلبي أن أتبعه .
- إذا فموتك عندي خير من حياتك .
- قامت أمي .. أمسكت بجسدي النحيل وشفعتني على وجهي، كانت الضربة قوية ومباغطة اختل لها توازني فوقعت على الأرض، ركلتني بقدمها في بطني عدة مرات، طاشت إحدى ركلاهما فاصطدم وجه قدمها بأنفي .

شعرت بالدم الساخن ينساب من أنفي بغزارة، وبطعم التراب يملأ فمي، ثم دارت الأرض بي، فكانت الأجسام من حولي خيالات بعضها ساكن وبعضها يدور، وأمي مازالت فوقني .. أراها سوداء كظل جبل عملاق يركلني بعنف .

ثم أظلمت الدنيا .. وقبل أن أغيب عن الوعي رأيت على المصطبة الكبيرة بيت النور ينظر إليّ .. ويتسمم ..

فتحت عيني ببطء .

خدر غريب يجتاح جسدي، وخوف رهيب يسري في عروقي، الرؤية مشوشة، هواء رطب يلفح جانبي وجهي .

أشعر بخيط رفيع من الدم ينزل من جانب أنفي الأيمن .

حاولت أن أرفع يدي لأمسح أنفي، ولكن بدا أن هناك شيئاً ما يعوق حركتي وكأني مربوط بجبل غليظ إلى جسم صلب .

تلتقط أذني أصواتاً غريبة، كلاماً وصراخاً، نداءات عالية، نهيق الحمير، وثغاء الماشية .

ثم بدأت الرؤية في الوضوح التدريجي، أغمضت عيني وعصرتها بقوة ثم نظرت مجدداً أستكشف المكان من حولي .

أنا في السوق ..

نظرت إلى أسفل فوجدت يدي مربوطة بقوة إلى وسطي بجبل غليظ نظرت لأعلى، فصعقت وانتفض جسدي لما علمت أني مربوط إلى الصنم الذي صنعه أبي وقتلت أمي أخي عند قدمه .. قدمه التي أنا مربوط إليها .

استغلت أُمِّي غيابي عن الوعي، سحبتني إلى هُنا وربطتني إلى قدم
الصنم وغادرت، تركتني أفكر .. تظن أني بذلك سأرجع على ما أنا
عليه عازم، من أين لها بتلك القسوة وهي بي منذ عهدتها رؤوفة ؟

أكاد أستشيط غضبًا منها ومن أصنامها ومن الطريقة التي تحاول بها
أن تمنعني عن الإيمان بالله نوح، ليس هناك أسوأ من أن يستبدل الإنسان
في الدعوة إلى معتقداته الشدة باللين، والإجبار بالتخيير، والاستهزاء
بالإقناع .

ولما نظرت إلى الناس من حولي استوقفني منظرٌ غريب، على
المصطبة الكبيرة الموضوع عليها بعض البضائع، رأيت خالي قاسم واقفًا
ينظر إلى القوم تلك النظرة التي كنت أرمق بها أُمِّي منذ قليل ..

ما الذي يحدث !؟

قاسم

أقف على المصطبة الكبيرة . أنظر إلى قومي من فوق . أتأملهم ..
أكره بعضهم حتى يكاد قلبي من شدة الكره ينفجر، وأشفق على
البعض حتى يكاد قلبي من شدة الشفقة ينفطر .

من يُسلم لجامه لغيره، ويترك شخصاً آخر يرسم له حياته ويتحكم
في مستقبله هو شخص يستحق الرثاء والشفقة لا الكراهية .

من يرضى أن يعيش كالنعاك يأكل ويشرب وينام دون أن يُحدث في
الكون تغييراً، دون أن يكون له دور في بناء الغد، ودون أن ينفع
الأرض بقدر ما ينتفع منها، فهو نصف إنسان وبقايا كائن حي يستحق
متاً أن نشفق عليه لا أن نكرهه .

أما عن من يظنون أنفسهم صفوة المجتمع، من يُقنعون عامة القوم
أنهم هم الساهرون على راحتهم، حُماة الحق، الحريصون على راحة
الآخرين وأمنهم، فهؤلاء لهم مني كل الاحتقار والكراهية .

ربي اغفر لقومي فهم لا يعلمون .

اقترب مني رجل كبير ذو شأن عظيم في قومه، أعرفه ويعرفني، فقد شكاني أبي له حين علم بأمر إيماني بما يدعو نوح إليه، فجاء إليّ ناصحاً واعظاً في البداية، مهدداً منذراً في النهاية .

نظر إليّ بعين محتقنة من شدة الغضب ثم قال :

- ماذا تفعل عندك يا ولد ؟

- أتابع قطيعاً من الغنم، يقوده قطيعٌ من الذئاب .

- ماذا تقول !؟

- قُلت ما سمعت .. قطيعٌ من الغنم نامت قلوبهم، وقطيع من الذئاب توخّشت شهواتهم .

كانت شدة صوتي في تزايد مستمر حتى وصل حد الصراخ حين وصلت لآخر كلمة نطقت بها، التفت إليّ الناس مشدوهين صامتين كأنّ علي رؤوسهم الطير ..

- كُف عن قولك يا ولد، انزل وارجع من حيث جئت وإلا ..

- وإلا ماذا ؟ ستشتكي إلى سُوَاع ؟ كيف لإنسان أن يعبد شيئًا خلقه بيده ؟ أخالق يعبد مخلوقًا ؟ كيف ترضون لأهتكم تلك الإهانة ؟ كيف تقبلون أن تُهان عقولكم بتلك الطريقة ؟

- وماذا تريدنا أن نفعل ؟ نؤمن بما لا نرى ؟

- أنتم الآن تؤمنون بما لا ترون، رأيتم من أصنامكم تلك شيئًا جديدًا أن تعبدوهم من أجله ؟

إعمال العقول محل القلوب في العبادات غباء .

صعد أحد القوم إلى المصطبة وجذبني من شعري بقوة، رماني من فوقها فسقطت على أرض السوق بعد أن اصطدمت رأسي بحجر ضخم، قمت والدماء تتساقط من أنفي، نظرت إلى السماء، حاولت أن أقول شيئًا لكنني بكيت .

جرّني الناس إلى وسط السوق، تحلّقوا حولي ونزعوا عني ثيابي، كنت مستسلمًا لهم لا تصدر عني أى مقاومة، أوقدوا نارًا طال لهبها كف أحدهم فصرخ من شدة الألم . كانت النار عالية وشديدة، وكان قلبي هادئًا مطمئنًا، كل شئ فيّ ثابت .

بينى وبين النار بضع خطوات، أنظر إلى الناس وعلى وجهي ابتسامة راضية مشرقة .

ومن إحدى زاويا السوق، تفصلني عنه مسافة بعيدة، رأيته يجري
حافي القدم طائر العقل، لا تكاد قدماه تلمس الأرض، وكأنَّ شيخوخته
استحالت شبابًا، وضعفه استحال قوة وعنفوانًا، حين رأيت الشيخ
حارث، وقد دخل القرية بعد طول انقطاع .. ارتدت إليّ ابتسامتي .

ثم أغمضتُ عيني، ولم أشعر بشيء ..

الشيخ حارث

كالظمان شديد العطش الباحث عن بئر ماء يطفى جمرات الخوف
والهلع بداخله أجري، عاري القدم، دامي القلب، مسلوب القوى، تاركًا
ورائي خمسين عامًا من العزلة، خمسين عامًا من الوحدة، أجري واضعًا
أمام عيني صورة قاسم حين رأيته أول مرة، ذلك الشاب الفتي، غائر
العين، ثاقب النظرات، مشتعل الذكاء، الذي وقف أمامي بثبات وقوة
طالبًا مني أن أعلمه مما علمتني رمال الصحراء .

ليتني ما علمتك يا قاسم . ليتك انتظرت حتى يُتم نوح بناء سفينته
وتركت قومك في ظلماتهم يعمهون .

ورغم كل هواجسي، ورغم صورة الموت المتجسدة أمامي، إلا أنني لم
أتوقف لحظة عن العدو، لا جسدي يكل ولا قلبي يشتكي .

كانت المسافة من الكهف الذي أسكنه إلى وسط القرية طويلة
شاقة على شيخ هرم مثلي، إلا أن طاقة غريبة كانت تحركني وكأنني أحمل

داخل جسدي البالي جسداً آخر لم يُفت الدهر عظامه ولا أحنته
تلايف الزمن .

وصلت أخيراً إلى القرية، أمر بمساكن القوم، النساء تنظرن إلىَّ
وعلى وجوههن الحيرة، لا تعرف واحدة منهن مَنْ ذلك الشيخ المجنون
الذي يجري في الطريق مهلهل الثياب عاري القدم، يسيل من عينه
الدمع ومن فمه اللعاب .

الأطفال الصغار يعرفونني، كثيرٌ منهم يأتون إلىَّ حيث أقيم .

يقذفون عليَّ الحجارة، فأحتمي منهم بالكهف، يطلقون عليَّ
السباب والشتائم، وأقابلهم أنا بالدعاء لهم ولمن أرسلهم بالهداية، لأول
مرة أرى على وجوههم تلك النظرة .. لأول مرة أراهم يتجنبون النظر
إليَّ . أَلقت غرابة هيأتي في قلوبهم الرعب والخوف، فأصبحوا هم من
يحتمون بأكواخهم مني .

أصل أخيراً إلى التلة العالية التي تحيط بأرض السوق، أقفز بخطوات
سريعة على الأرض المنحدرة، تتعثر خطواتي وأسقط على وجهي، أقوم
ووجهي ملطخ بالرمال والدم .

آلني عجزني وطول المسافة بيني وبين قاسم الذي أراه يجرّه رجلان
شديداً البنيان، ومن حوله الناس بعضهم يركله والبعض يلكمه وقلة

قليلة اختارت أن تقف موقف المشاهد المتشفي الذي ينظر بغلٍ وحقْدٍ
إلى عدوه وهو مشرف على الهلاك، يكتفي فقط بالبصق عليه من حين
لآخر وهو في طريقه إلى النار المشتعلة ..

وحين نزلت من أرض التل المنحدرة إلى أرض السوق، وقد كان
يفصلني عن قاسم خطوات قليلة، كان الرجلان قد ألقيا بقاسم في النار
والناس من حوله يهللون ..

وهنا فقدت الإحساس بكل ما حولي، لم تستطع قدماي أن تحملايني
أكثر من ذلك فسقطت على الأرض، أخبط بكفي على الرمال وأبكي
بكل ما بداخلي من عجز . كمن رأى موضعه من عذاب الآخرة
أنتحب، تنقطع أنفاسي والروح مني تنسحب،

انسحب الناس من حولي وانفض السوق سريعا، عادوا إلى عالمهم
وأنا عن عالمي غائب .

ولم يردني إلى عالمنا إلا تلك الصرخات المتتالية العالية المختلطة
بالبكاء والقهر .. تلك الصرخات التي كان يطلقها طفل صغير مربوط
بجبل غليظ إلى قدم أحد الأصنام، لم أتبين ما كان يصرخ به في البداية،
لكني حين فهمت فُمت، مسحت عني الدمع والمخاط واللعباب
المختلطين بالتراب، توجَّهت إلى الصنم .

فككت عن الولد الحبل، فانهار وكاد يسقط على وجهه لولا أن
تلقفته وأخذته إلى حضني، وجدت نفسي أقول له الكلمات الأخيرة
التي قالها قاسم لي، أصبره.. وأصبر بها نفسي :

أبكي كثيراً على حال قومي ..

أبكي كثيراً، لكني أبداً لا أندم على إيماني بالله ..

وحتى إن كان الثمن موتي، فالموت في سبيل الحق حياة .

مالكة

قتلوه، قتلوا أخي قاسم ..

أحرقوا جثته فلم يبقَ منها إلا الرماد، قتلوه وسواع على ما فعلوا به
شاهدٌ .

منذ صغرنا ونحن دائمي الخلاف، طباعنا مختلفة ومزاجنا متباين .

حين أظهر أمر إيمانه بما أنزل على نوح صفعه أبي، وغضبت عليه
أمي غضبًا شديدًا، لكنه لم يرجع على ما كان قلبه عليه عازم، لم يفلح
معه التهديد ولا الضرب، لم يفلح أى شىء أن يُرجعه عن إيمانه .

قاطعناه فلم يرجع عن عزمه، غادر قريتنا بما فيها، وبعد أيام قصيرة
علمنا أنه ذهب إلى قلب الصحراء حيث يقيم شيخ هرم يتبع ما يأمر به
نوح، وأن هذا الشيخ يُدعى حارث ..

لم يذهب أحد منّا إليه ليُعيده، لم نُعد معه محاولاتنا .. تركناه .

" كأنها شاة ضلّت الطريق وهامت وحدها في الصحراء "

هكذا قال أبي .

كنت كباقي أهلي ساخطة على أخي، تعجبت كثيراً من تفكيره،
يؤمن بما لا يرى ؟ يؤمن بمن لا يُقدم له القرابين ؟ يؤمن بمن لا يسجد
تحت أقدامه ؟ كيف لبعيد في أعلى السماء أن يسمع دعاءنا ويُلبي
النداء ؟ كيف يُفكر أتباع نوح ؟

ولكني حين جأني الخبر طار عقلي، جريت من الكوخ إلى أرض
السوق وصورة زافر مرسومة أمامي طوال الطريق .

لا أريد أن يكون هذا مصيره .. أن يُحرق فلا نجد له جثة ندفنها .

وصلت أرض السوق أخيراً، فُض السوق قبل مواعده، رجل كبير
يحتضن صبياً أمام النار التي هدأت قليلاً، الشيخ يربت على كتف
الصبي ويحرك شفثيه لعله يقول كلمات يهدئه بها .

اقتربت منهما حتى كانت المسافة بيني وبينهما خطوات قليلة، كنت
أعرف أن الصبي هو ابني زافر، ودون أن أنظر إلى الشيخ عرفت مَنْ
هو .. صرخت في وجهه دون أن اشعر ..

أنت السبب، أنت قاتله، لو لم يذهب إليك ما كان ليأتي ليجادلنا
فيما نؤمن به وما كان قومه ليقتلوه .

نظر الشيخ إليّ ولم يُجب، كانت نظراته تائهة يكاد لا يدرك ما يجري

حوله

كان زافر هو من وجه إليّ نظره والغضب يتطاير من عينيه، انتفض

جسده وهو يصرخ قائلاً :

- بل قتله قومك، قتله جهلهم وجحودهم، جعلتيني أرى خالي

يحرقه قومك أمامي وأنا عن صدهم عاجز، لن أسامحك ما

حييت، ولن أرجع عن ما أنا مؤمن به حتى ولو ألقيتني بيديك في

النار .

قام زافر وأمسك بيد الشيخ، لف يده حول وسطه، ومضيا في اتجاه

الصحراء، وأنا بين رماد أخي وبقايا ابني مُمزقة حائرة دامعة القلب

والعين.

أخبار نوح

كان نوح قد انتهى من قطع آخر نخلة، وبذلك أكتمل بناء السفينة
بعد أن طراها بالقار .

ولما كانت الآية هي أن يفور التنور، فقد كان التنور قد فار، وأمر
ربه قد اقترب .

آسيا

وكان كل ما كان من الحب ما كان .

وكان الإيمان بوجود ما لا يُرى ولا يُسمع هو شرط استمرار ما بيننا
من حُب ومودة .

شئ تعيس أن يتحول الحُب إلى سجن عميق مظلم كقاع البئر، شئ
تعيس أن يكون للحب شروط وحدود، أن يُجْزِكَ وليف روحك بين
أمرين كلاهما عليك صعب كالموت جارح كحد السكين .

يُخْزِنِي آدم بين الإيمان بما لا يقبله عقلي أوالفراق .. إما أن تلقي
بعقلك جانبًا وتدوسين عليه بقدمك، وإما أن أدوس أنا على قلبك يا
آسيا، أيهما سُبْدهس يا آسيا وكلاهما عليك عزيز ؟!

" من قال أن الحب حُلُو كنهْر من العسل ؟ بعض الحب أكثر مرارة
من الصبار .

ومَن يقول أن حتى الصبار إذا كان من أجل إرضاء الحبيب يؤكل،
فهو أحلى من العسل ؟

أى حُب هذا الذي يُحيل حياتنا كابوسًا ويستحق منا التمسك به ؟"
عقلي يقول لي هذا يا آدم، فكيف وأنا التي اعتدت طوال عمري
أن أطيعه من أجلك أعصيه ؟

خرجت فجراً ولم أرك من يومها .

مر يومان يا آدم .. أين أنت ؟

يكاد عقلي يطير، ليت عقلي يطير، لن أضطر أن أفاضل بينك
وبينه إذا .

فإن غاب عقلي، فأنت من بعده على كيان المسيطر .

ليتك تعود يا آدم، ليتني أجري عليك وأضْمك إليّ وتأخذني إليك،
ليتنا ندوب ساعة دون كلام أو نقاش، أدفن وجهي في كتفك لتطير كل
الأفكار السوداء المزعجة، أتنفس عبير جسدك وأغفو .

نعم .. يرفض عقلي فكرة وجود إله، لأني لا أجد على ذلك دليلاً
ملموساً،

لو كان لي عقلٌ غير عقلي، ما كنت لأذوق كل هذا العذاب .

تضيق على جدران الكوخ، وتجسم على صدري ذكريات أتصورها
في كل الأركان، البرد ينخر عظامي، يتخللها ويتحسس طريقه إلى روحي
وقلبي . أرتجف فوق سريري وأتحسس موضع آدم الذي أصبح خاليًا .

أقوم .. أركل باب الكوخ وأندفع خارجه .. أهرب منه إلى الصحراء
الممدودة أمامي بلا نهاية، تمامًا كهمومي وشكوكي وأفكاري .

في الناحية القصوى من جهة اليمين تظهر قمة الجبل الأحمر، يسقط
عليه ضوء القمر، ينيره ويغطيه بهالة من الهيبة والحزن .

تسوقني قديمي ناحية الجبل، أغلق الباب من خلفي وأسير مُرتجفًا
باتجاهه .

أتأمل الفضاء الصامت كالموت من حولي، ينتابني خاطرٌ غريب بأني
المخلوق الوحيد الذي يدب بقدميه فوق الأرض .

تُرى كيف كان إحساس أبينا آدم حين تأمل الدنيا من حوله فلم يجد
فيها أحدًا سواه ؟ هل صفع جسده حزام حارق من نار ووحدة كالذي
أشعر به الآن ؟

أنحني على الأرض، أقبض بيدي على بعض الرمال، أفف .. أحكم
قبضة يدي على ما تحتويه من رمال، أجعلها تنساب بين أصابعي ..

آلمتني الوحدة يا آدم .

المسافة إلى الجبل لا تنتهي، وكأنني أسير عكس الإتجاه، أقول
لنفسي ومرارة الشوق إلى الحديث مع مَنْ طال غيابه تُسيطر عليّ،
" لا تقلل أبدًا من شأن الشغف " .

أجلسُ عند سفح الجبل يحيطني غبش الليل والوحدة، تدور أفكارني
حول فُلك عقلي في حلقات متقاطعة متداخلة يشوّش بعضها بعضًا .
في يدي عصًا صغيرة أرح بها خيوط الرمال المتقاربة أمامي
فأباعدتها وأفرّق بينها .

أنظر إلى السماء الرمادية المفردة كحصيرة من زجاج قائم، العن
السماء وأسبّها ثم أرجوها وأدعوها أن ترد إليّ الغائب .
أخاطب مجهولًا لا أدري إن كانت له القدرة على السّمع .

أيها ال... حسنًا لا أعرف لك اسمًا غير الذي يُحب آدم أن يدعوك
به معظم الوقت . أيها الرحيم !

أين أنت ؟ ولماذا وضعتنا في هذه الحيرة، ولماذا ألقيت بنا في بحار
هذا الشك ؟ أأنت موجود حقًا ؟ لم لا يستطيع عقلي أن يتقبل
فكرة وجودك إذن ؟

أنا خائفة أيها الرحيم، أنا خائفة وضعيفة إلى أبعد حد .

لم جعلتنا وجعلتهم يضلون الطريق إذا كنت تريد لنا الهداية؟!!

أنا خائفة أيها الرحيم، أنا خائفة وضعيفة ووحيدة إلى أبعد حد .

نورك موصولٌ بين السماء والأرض، ممدودٌ في قلوب كل عبادك،

هكذا أخبرني آدم .. فأين نصيب آسيا من نورك ؟ أنت موجودٌ حقًا أم

أنني أنا جني الفضاء ؟ أريد دليلًا، أريد آية فلم لا تظهرها إلي كي يطمئن

قلبي؟!!

أنا خائفة أيها ال... .

ثم غبتُ في نوم عميق .

آدم

جاء أمر الرب يا آسيا، واليوم سيحل عقابه على الكافرين، أخبرنا
نوح أن بناء السفينة قد اكتمل .

غبت عنك يومين، حاولت أن أختبر روعي .. هل ستقدر على
الحياة من غير وليفها ؟

لكني علمت أن لا حياة لوليف في البعد عن وليفه .

توقف قلبي عن النبض عندما لم ترك عينا ليومين، فكيف للحياة
في جسدي أن تستمر في البعد عنك ما تبقى من العمر!؟

طوال غيابي لم يتوقف عقلي لحظة عن التفكير فيك، همت على
وجهي في الصحراء لا أعلم إلى أين تأخذني قدماي، كنت أنوي ألا
أعود إليك، لكني حين علمت أن الهلاك قد اقترب، جئتك أخطو على
كل النوايا ..

دخلت الكوخ لكنني لم أجدها، خرجتُ ودُرت حوله عدة مرات
علني أجد لها أثرًا، لكنها لم تكن هناك .

الخوف والقلق يفترسان قلبي، ينتزعان عقلي ويلتھمانه بتأنٍ، وأنا
أجري في كل الأرجاء باحثًا عنها، أنزل على ركبتي أضغ خدي على
الأرض وأتفحص بعيني أثرها على الرمال في كل الإتجاهات، ولكن لا
شيء على الإطلاق، مما يعني أنها غادرت الكوخ من مدة طويلة، مدة
تكفي بأن تتكفل الرياح بمسح أثر أقدامها الرقيقة عن سطح الرمال .

أنظر ناحية الجبل الأحمر حيث كان اللقاء الأول، عدوت نحوه وأنا
على يقين أنني سأجدها هناك .

حين اقتربت من الجبل، نظرت ناحية اليسار فوجدت قمة السفينة
الضخمة تنظر إليّ وكأنها تراقبني .

أجفل وتتضاعف ضربات قلبي حين أفكر في أنني سأقف هنا، في
منتصف الطريق بين آسيا والسفينة يومًا ما، وأني سوف يكون علي أن
أختار بينهما .

عقلي يقودني إلى السفينة، وقلبي يجفلي ناحية آسيا، وأنا بينهما
مسحوق .

أرجئ الاختيار حين ميعاده القريب، وأتجه ناحية الجبل حيث يجبرني قلبي أنها أمضت ليلها عنده .

ومن بعيدٍ، لحت طيفها الذي لا أتوه عنه، هرولت إليها فوجدتها جالسة، تضم ركبتيها إلى صدرها وتحتضنهما بيديها، ووجهها بينهما مدفون، ناديتها فلم تُجب . أمسكت وجهها بين كفيّ أتأمله، باردٌ كالثلج، يميل لونه إلى الأزرق، وهالات سوداء بدأت تتحسس طريقها إلى أسفل عينيها المختنقة، أجلس بجوارها، أضمها إلي وألف ذراعي حول كتفها، أمرر يدي على جسدها المنكمش أدقته .

أقول لها مع أي أعرف أنها لن تسمع، أي اشتقت إليها، وأني أحبها كما أحب آدم حواء التي خلقت من ضلعه، وأني أشتهيها كاشتهائه للشجرة، ويصعب عليّ فراقها كما صعب عليه فراق الجنة .

مرّت ساعة طويلة قبل أن ترفع رأسها وتنظر إليّ غير مُصدقة أني قد عُدت، انتفض جسدها وقامت مسرعة، وألقت عليّ جسدها، ألقت عليّ أكوام الحزن والههم والقلق المتراكمة على قلبها منذ يومين، احتضنتني كما لم تحتضني من قبل، دفنت وجهها في صدري وأخذت تُشم رائحتي وتتنهد، كان صدرها يعلو ويهبط بسرعة، وعيناها تتحركان

تتفحص جسدي من شعري وحتى أصابع قدمي، يداها مضمومة حولي
بشدة، حتى كادت تعتصرني، فضحكت قائلاً :

- رفقاً بضعيفٍ جاء فيكٍ يحتمي ..

فنظرت إليّ والدمع محتبسٌ يأبى أن يسيل من عينيها :

- رفقاً بقلب ليس له في الحياة سببٌ غيرك .

آلني ضعفها وعجزني، نظرت إلى عينيها طويلاً لا أمل، وهي
مازالت تضمني إليها بقوة وتشم رائحة صدري، كما كانت تحب دائماً
أن تفعل .

- أمر الرب قد جاء يا آسيا، ألا تُلين النداء ؟

- ليتني أستطيع أن أفعل يا آدم، ليت عقلي يُطيعك .

- مازلت لا تؤمنين؟، العذاب واقع والقوم هالكون .. لم العناد ؟

- أرفض أن أمتثل لأمر غير أمر عقلي يا آدم، عقلي يأمرني ألا

أطيع من لا أراه ولا أسمع، يأمرني ألا أطيع من يقول أن أحدهم

قد جعله وسيطاً بيننا وبينه، كيف أركب معك السفينة إذا يا

ولد عمي ؟

- اركبي معنا يا آسيا، ولعل قلبك يهتدي بعد أن تري بعينيك
الدليل .

- السفينة للمؤمنين لا للمتردددين، هُنا أرض التفكير والتدبر، أما
السفينة فهي أرض النجاة، ولا يستحق النجاة من كان في قلبه
مثقال ذرة من رفض .

ليس هذا ما أؤمن به، بل تلك هي القواعد التي وضعها مَنْ
تؤمن به وبربه، دع عنك النقاش الآن، فقد مضى وقته .. تعالَ
معي .

أمسكت بيدي وعدونا ناحية الكوخ، أطلقنا قدمينا للريح كطفلين،
يتشبث كل منهما بيد الآخر، يضحكان بمرحٍ، يطرحان عنهما كل آلام
الحياة، تركنا الهواء يدخل رئتينا فيملاًهما ويزيل عنهما الانقباض
والضيق، وتركنا النشوة تتسرب إلى روحنا تداعبها وتفعل بما ما تشاء .

وصلنا الكوخ، دخلناه وانطلقنا نحو الفراش ..

" أرخت آسيا جسدى المتعب، ثم خلعت عني ثيابي برفق، كان كأنه
أول لقاء، وكُنّا من فرط الشوق والشيق كعائمين في بحر من العسل " .

كنت اشعر بإرهاق شديد من طول السير والتفكير والسهر،
فأخذت تُمسد بيدها على شعري وهي تهمس قائلة وكأنها تحدث نَفْسِهَا:

إِن الْمُحِبِّ بِمَنْ يُحِبُّ رَفِيقٌ

لا أذكر كم طال بي النوم، ولا أذكر ما رأيت في نومي كي أقوم
مفروعاً وجسدي ينتفض بتلك الطريقة، كل ما اذكره أن الكوخ كان
ممتلأً برائحة الموت !

الشيخ حارث

الصبر يا حارث، ما الدنيا إلا دوامة من الابتلاءات، وما كانت
الجنة إلا للصابرين .

الصبي، منذ أن جاء معي إلى الكهف وهو نائم محموم، جسده
ينتفض وجبهته كأن تحتها قطع من الجمر، يهمهم أحياناً بكلمات لا
أدركها، كأنه يحدث شخصاً أثناء نومه، يقوم أحياناً جاحظ العين، صدره
يعلو ويهبط بلا توقف، يصرخ صرخات عديدة متقطعة مختلطة بالبكاء
كتلك التي كان يصرخ بها حين كان مربوطاً إلى قدم الصنم في السوق،
أضمه حينها إلى صدري وَا رَبَّتْ بكفي على ظهره برفق حتى يهدأ،
فيعود إلى النوم من جديد وكأنه ما قام ولا ثار .

وكان لي قلبين، قلب مفطور على قاسم وآخر ملهوف على زافر،
والقلب بين رحايا الحزن والخوف مطحون .

مر يومان، بدأ الشحوب يختفي من وجه الولد وحل ماء الحياة
مكانه، لكنه ظل زائغ العين حتى ظننت أنه قد فقد بصره، ناديته فلم

يُجِب، وضعت في فمه بعض الطعام فمضغه على مهل، نظر إليّ أخيراً
وقال من بين دموعه " شكراً يا عمي " .

تمضي الأيام بطيئة ومتشابهة، الكل يتربص وينتظر، حتى من كان
يكفر بما يقول نوح، فإن الخوف الآن بدأ يسري في عروقه، اكتمل بناء
السفينة، أتم نوح رسالته إلى قومه، أُلّف عام إلا قليلاً، وقد حان وقت
الحساب .

وإن كان نوح قد كف عن دعوة قومه، فإن قاسم كان قد أوصاني
أن اخرج من عزلتي، ولكن من أنت يا حارث لتفعل ما كف رسولك
عنه ؟

ربما في وقت آخر يا قاسم، ربما في وقت آخر .

نظرت إلى الصبي النائم بجواري، أحكمت على جسده قطعة
الصوف، ووضعت بجانبه بعض الماء وكسرة خبز ..

خرجت من الكهف، الغيام يُعكر وجه السماء، الرياح تهُب عليّ
من كل النواحي، الأرض وكأنها تتألم كلما خطوت بقدمي فوقها أو
ضربت على بطنها بعصاي فتتهتز من تحتي .

ولما كنت قد فهمت العلامات فقد حددت قبلي، سأذهب حيث
يقيم نوح سفينته .. فلديه اليقين .

زافر

لستُ نائمًا ولا يقظًا، عقلي يدور ويتوه في فلك التفكير .

وما بين النوم واليقظة أشعر بانتفاضات جسدي، وبالماء يُبلل شفتي
بين الحين والآخر، وبغطاء يُحيط جسدي، أسمع صوتي أحياناً اتمتم
بكلمات غريبة، وأسمع أحياناً صوتاً يصل إلى أذني وكأنه قادم من عالم
آخر يبعد عني آلاف الأقدام، صوت يدعو ويكرر اسم خالي قاسم
كثيراً، خالي قاسم ...

دائمًا ما تنتهي بي دورة التفكير عند خالي قاسم، جسده الذي كان
يحترق أمامي، نظرته إليّ بعين مُحْتقنة ذاهلة، كلماته وثباته واستسلامه ..
ثم صرخاتي، صرخاتي العالية، صرخاتي المتكررة، التي أقوم من نومي
منتفضاً يكاد صوتها أن يصم أذني، ثم نفس المتأهتة تتكرر من جديد .

ثم رأيت بيت النور ...

كأول مرة رأيت فيه، حلقة كبيرة بداخلها حلقة أخرى صغيرة، وفي
وسط الحلقتين يجلس هو، وجهه كالبدن ليلة الكمال ..

اقتربت منه، نظر إلي نظرتة الهادئة المطمئنة .

قال :

- ما بك يا ولدي ؟

قلت :

- مهموم .

- ولمّ الهم ؟ الله اصطفاك فابتلاك .. ألا تصبر ؟

- وأين هو الله ؟ أين عدله ورحمته التي حدثني عنها ؟ أمن الرحمة

أن يجعلني ربك أشهد حرق خالي ؟ أن أغضب أُمي ؟

أشرق وجهه، رفع يده ووضعها على صدري وربت عليه مرات قليلة

برفق ثم أشار إلى قلبي وقال :

- الله هنا قبل أن يكون هناك .

وفرد ذراعيه على طولهما مشيراً إلى ما حوله، ثم أكمل كلامه " هو

رحيم يا ولدي، ورحمته تجعل من الخن منح، كل خلقه مُبتلون يا زافر،

ليس فقط المؤمنون، لكن الفرق بين المؤمن والكافر هو الصبر على

الابتلاء، الصابر فائز والجازع هالك "

- وأُمي ؟

- أمك اختارت طريقها يا ولدي، اختارت أن تؤمن بما يؤمن به قومك، اتركها وما هداها قلبها إليه .. ألم أقل لك أن رحمته وسعت كل شئ وأنه لا أحد مستثنى من مغفرته ؟ لا تُصدق من يقول أن من ضلّ طريقه في البحث واقع في العذاب ادع لها يا زافر.. واعلم أن ربك رؤوف رحيم .

- قلبي يحترق ..

يطرق بيت النور، يلف يمناه حول ظهر الصبي، ويربت بيسراه على كتفه .

يقول:

" ستراني مرة أخرى وتكون الأخيرة، ثم لن يكون لك حاجة في بيت النور حين تمثدي روحك لبيت الورد"

قلت :

- من ؟

قال :

- انتظر ..

آسيا

أما كان هناك من طريق آخر ينتهي به ما بيننا؟ الموت يا آدم؟
توسدتُ صدرك العاري، أخذت أغازل الشعيرات القليلة المتناثرة
على أطرافه، كقطع من اللؤلؤ على طبق من الذهب، أفكر في النهاية
المناسبة لقصتنا .

إذا كنت بقيت معك وحدث الطوفان، فما كنت لأركب السفينة،
وحينها كنت سأتركك أمام خيارين أعلم أن كليهما عليك صعب، إما
أن تتركني وتركب السفينة، وإما أن تترك السفينة وتركب معي طريق
الهلاك..

ولما كان في أمر تركك إياي وركوبك السفينة احتمالاً أقرب إلى
الحدوث، فلم أرد أن أموت وأترك بداخلك جرحاً لا يندمل وندماً لا
يزول أنك تركتني للهلاك ورحلت .

وإن لم يحدث الطوفان، وثبت للناس أن نوحاً على باطل وأنهم على
حق، حينها كنت ستكرهني وتكره قومك وتكره نوحاً والحياة، وما كنت

أحتمل يا آدم أن أراك تنظر لي بغير الحب، لذا اخترت أن أضع أنا
النهاية، أن أموت لتحميا .

نظرت إليك طويلاً، أخذت شفتك السفلى بين شفتي، نفخت فيك
من روحي، واستقبلت بداخلي أنفاسك، وضعت أنفي على صدرك، مرَّ
عليّ وقت طويل وأنا على هذا الوضع لا أتحرّك، أشم رائحتك وأبكي .
ثم قمت أخيراً، أمسكت السكين، غرستها في رقبتي بتردد في البداية
ثم بثبات وقوة، فأسيا غير كل النساء، آسيا قوية، وستبقى قوية حتى
أمام الموت .

لكني ترددت وتوقفت لما تذكرت وجهك الباسم ورائحة صدرك
والطريقة التي تضم بها جسدي إليك .. توقفت .

ولكن حين قلت لنفسي أن وجهك لن يظل باسمًا إذا بقيت أنا على
قيد الحياة وأنت لن تضميني إليك ولن أشم رائحة صدرك مرة أخرى،
أكملت .. وكانت النهاية !

الفصل الثاني

الطوفان .. وسبعة أيام على ظهر السفينة

(١)

أحال الغيام النهار ليلاً، السماء اسودت والدنيا نُهار، أصوات
الرعد تصم الآذان، والبرق يكاد يخطف الأبصار، الرياح تحدث صفيراً
يرعب القلوب .

داخل أحد الأكواخ نجد أمًا تضم أبناءها إليها، تحتضنهم .. تحميهم
وتحتمي فيهم من الخوف والرياح التي تشتد حتى تقتلع الكوخ من
جذوره فينهار على من فيه . يموت منهم من يموت ويجري منهم من
يجري، ولكن إلى أين اليوم من الموت المفر؟!

وعلى قمة أحد الجبال نطل على عائلة تقف على الحافة، ينظر
الأب إلى أبنائه نظرة تحمل معانٍ كثيرة، قلبه ينفطر وروحه تنهال عليها
رماح العجز والندم . بتردد يمسك أول أبنائه والذي كان أحبهم إلى
قلبه، كان يتمنى أن يراه سيداً في قومه وخادماً للآلهة، يضمه إليه ويقبله
ثم يُلقيه من فوق الجبل، ثم يلقي بالولد الآخر، ثم ابنته، فزوجته، ثم
بنفسه .

وفي بقعة بعيدة من الصحراء نرصد شيخًا كبيرًا، هذا الرجل كان من سادة القوم، نقرب منه أكثر فنجد أننا نعرفه، هو الرجل الذي أمر القوم في السوق بأن يحرقوا قاسم، نرى أنه يمسك في إحدى يديه صرة كبيرة من القماش بداخلها أشياء لا نراها من شدة إحكام قبضته على حملته، تسقط واحدة من تلك الأشياء على الأرض، فيضع حملة ليعيد إليه قطعة الذهب التي سقطت منه، بداخل الحمل نرى عدة سبائك من الذهب وبعض كسرات من الخبز وقارورة كبيرة مليئة بالماء وإناء من الفخار مملوءًا بالتمر، وفجأة نسمع صوت الرعد يأتي من كل الاتجاهات، يفرع الرجل ويقف على قدميه وينظر إلى السماء، تتسع حدقتنا عينيه وينتفض جسده حين تصطدم به قطعة كبيرة من النار الناتجة عن البرق الشديد الحادث فوقه، يحترق جسده ويتلوى من شدة الألم، تحرقه النيران وتأكل جسده، يصرخ ويتمرغ في الرمال والنيران لا تسكن ولا تهدأ، ينتفض عدة مرات، ثم يسكن وتخمد حركته وتنسحب روحه، تفحم كل جسده وبقت عيناه مثبتة على السماء .

نعود إلى القرية .. بداخل أحد الأكواخ نجد شابًا يجلس مقرفصًا على الأرض، لا نتعرف عليه من ظهره، ندور حوله وحين نرى وجهه نعرفه ونعرف الجسد الملقى أمامه ونعرف لم يضم الشاب الجسد إلى صدره ويكي بتلك الحُرقة .

الشاب هو آدم، والجسد هو جثة آسيا، وإن لم تكن آسيا التي عهدناها، ليست آسيا الجميلة المليئة بالحياة والحب والحياة . جسدها لم يعد مغريًا يثير الشهوة، بل أصبح خامدًا لا يتحرك كأنه شجرة كانت في مهيب الريح ثم اجتزت من جذورها، فسقطت على الأرض ساكنة من بعد طول حركة ونشاط .

الشاب يبكي ويرتعد، يضرب بكفه الأرض، يصفع الهواء، ويلطم وجهه حتى تندفع الدماء من أنفه .

يسكن آدم فجأة وكأنه ما كان يبكي ويصرخ منذ قليل، يميل على آسيا ويقبلها قبله طويلة، ثم يقف على قدميه، يخرج بها من الكوخ، يقف على بابه، ينظر إلى السماء وهي مازالت محمولة على يديه، يقف بثبات والصمت يحيط به .. كل شئ فيه ساكن لا يتحرك إلا دموع تتوقف عن الانجراف على خده، يُبقي نظره على السماء .. ثابت كتمثال نُحت من الحجر، يبقى على هذا الوضع لا الرياح تُحركه ولا البرق يُرعبه .. تمثال من شمع وشجن !

يمر الوقت، دقائق قليلة وبحل الطوفان وتغرق القرية بكل ما فيها، والشاب ما زال ساكنًا في مكانه .

نذهب إلى أرض السوق حيث التمثال الكبير .. تمثال سواع، تحت القدم اليمنى للتمثال تجلس امرأة، جسدها ساكن، لكن يديها تتحركان، تنبش في التراب وكأنها تبحث عن شيء ما، تبكي بصوت مسموع وتنتحب، تعرف ما تبحث عنه وتعرف تحديداً أين مكانه ..

وفجأة تتوقف المرأة عن الحفر ويزداد نحيبها، تقترب منها فنجدها ممسكة بشئ غريب، قفص صدري، بقايا عظام تأكل معظمها، نتبين من حجمها ومنظرها أنها تنتمي إلى طفل رضيع لم تمر على ولادته سوى أيام قليلة، وأمام المرأة نجد حفرة صغيرة فيها ما تبقى من عظام الطفل، متآكلة وبالية إلا عظام الرأس ما زالت صلبة ومتماسكة .

تحتضن المرأة العظم، ترفع بصرها وتنظر إلى التمثال نظرة طويلة، تستجديه أن يفعل شيئاً .. أن يغضب ويتحرك ويثور، أن يحفظ لها حياة ابنها الراحل حتى وإن كانت روحها هي قربان هذه المرة .

تبدأ الأمطار في الهطول، وينابيع من الماء تنفجر من باطن الأرض، الرياح تشتد وترداد سرعتها، كل ما حول المرأة يتحرك وهي ثابتة تحتضن العظام وتبكي، ومن فوقها كانت رأس الصنم تهمز وتميل، وفجأة .. ولشدة الرياح انهارت الرأس وانفصلت عن جسد الصنم، وسقطت إلى جانب قدمه اليمنى، على رأس مالكة .

تَهَشَمَت الرَأْس، وَسَقَطَ جَسَدُ الْمَرْأَةِ عَلَى قَبْرِ ابْنِهَا، وَاخْتَلَطَ دَمُهَا
بِبَقَايَا عِظَامِهِ .

وَفِي وَسْطِ الرِّيحِ كَانَ الشَّيْخُ حَارِثٌ يَجْرِي، يَهْمَسُ إِلَى نَفْسِهِ " اَجْرِ
يَا حَارِثُ، فَقَدْ كُتِبَ عَلَيْكَ أَنْ تَجْرِيَ، قُتِلَ قَاسِمٌ وَلَمْ تُدْرِكْهُ، لَا تَتْرِكْ
الْمَوْتَ يَخْطِفُ زَافِرًا أَيْضًا، اَجْرِ يَا حَارِثُ "

وَصَلَ أُخِيرًا إِلَى الْكَهْفِ، دَخَلَهُ فَوَجَدَ الصَّبِيَّ جَالِسًا يَحْتَضِنُ رِكَبَتَيْهِ
مُنْتَفِضًا، أَمْسَكَ الشَّيْخُ بِمَعْصَمِ الصَّبِيِّ وَهَزَّهُ .. أَفَاقَ الْوَلَدُ، نَظَرَ إِلَى
الشَّيْخِ وَصَرَخَ :

" أُمِّي يَا شَيْخَ .. أُمِّي "

حَمَلَهُ الشَّيْخُ وَضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ وَجَرَى بِهِ خَارِجَ الْكَهْفِ، إِلَى حَيْثُ
يَقِيمُ نُوْحٌ وَتَرَسُو السَّفِينَةَ تَنْتَظِرُ الرَّاكِبِينَ .

(٢)

على حدود القرية كانت السفينة واقفة، أمسك نوح بلوح كبير من
الخشب وكتب عليه بخط كبير وواضح ..

يا إلهي ويا مُعيني .. برحمتك وكرمك ساعدني

ولأجل هذه النفوس المقدسة ..

محمد، إيليا، شبر، شبير، فاطمة

الذين هم جميعاً عظماء ومكرمون

العالم قائمٌ لأجلهم .

ساعدني لأجل أسمائهم .

ثم أمسك باللوح وعلقه على مقدمة السفينة والناس واقفون،

يتابعون بصمت وحيرة ما يحدث .. لمن هذه الأسماء ؟ لا أحد يعرف !

الطوفان على وشك الوقوع، ليس أمامهم الكثير من الوقت، يجب

أن يركبوا السفينة .

ينظر نوح باتجاه القرية نظرة أخيرة طويلة، ينتظر شخصين لن يأتيا ، يرفع رأسه وكفيه إلى السماء ويدعو، ثم يصمت ويُرْهف السمع وكأن شخصًا ما يحدثه، شخص غير مرئي ولا مسموع يرد على دعائه، أطرق نوح حين جاءه الرد واحتبس الدمع في عينيه .

ينظر أخيرًا إلى الأعداد القليلة من البشر الواقفين أمامه، يأمرهم أن يركبوا السفينة، يتجهون إليها بنظام، لا يدفع أحدهم أحدًا . يصعدون إلى الدور الثاني من السفينة، ومن بعدهم تتقدم الحيوانات إلى الدور السفلي، ثم الطيور إلى الطابق الثالث والأخير . نُفتش في الوجوه الجالسة علنا نجد أشخاصًا نعرفهم .

أخيرًا، نجد حارتًا وقد جلس في ركن قصي وعلى فخذه يرقد زافر، يرتعد ويبكي وينوح " أمي " .. نُفتش في الوجوه مجددًا .. أين آدم ؟!

بدأ عقل آدم يفهم ما يحدث من حوله وما فعلته تلك التي يحملها على يديه بنفسها، كالسهم انطلق باتجاه الجبل، تشتد الرياح وينفجر الماء من باطن الأرض وهو يجري، تغطي المياه الأرض ويصل ارتفاعها إلى ركبتيه وهو يجري، لم يتوقف عن العدو إلا حين غمرته المياه، حينها

قبض بيده على ساعد آسيا وأخذ يضرب الماء بيده الأخرى وقدميه،
لاح له الجبل أخيراً كما لاحت السفينة، إلى أيهما يتجه ؟

دفع آسيا باتجاه الجبل، صعده بصعوبة وهو يحملها، يصل أخيراً إلى
قمته، يجد شاباً يقف متأملاً السفينة، ويسمع صوتاً يناديه صارخاً "
اركب معنا يا ولدي " فيرد الشاب " سأوى إلى الجبل يعصمى يا أبي "
.. يقول الرجل " لا مُنجي اليوم من أمر الله " .

يحفر آدم .. تتدافع عليه المياه ولكنه يحفر، يسقط وتسقط فوقه
آسيا لكنه يتحامل، يحملها مجدداً ويواصل الحفر، والشاب ينظر إليه
وعلى وجهه علامات الدهول .

انتهى الحفر، أمسك بالجنة ونظر إليها نظرةً أخيرة .. قبلها . كانت
القبلة باردة ولها طعم التراب ورائحة الموت .

" لنا لقاء يا آسيا "

وضع جثتها في الحفرة وأهال عليها التراب .

ثم نزل إلى الماء وسبح باتجاه السفينة، أمسك بمقدمتها وتعلق باللوح
الحشبي الكبير المعلق عليها وصعد، حين وصل إلى الطابق الثاني وجد
يداً تمتد إليه وتساعدته على الصعود، نظر إلى صاحب اليد فإذا به يجده
ذلك الرجل الذي كان ينادي على ابنه منذ قليل .. نوح .

نتابع المشهد من فوق، وكأننا طائر يرصد الحدث، المياه تبهط على القرية من كل ناحية سماءً وأرضاً، الناس يخرجون من بيوتهم ومن الطرقات الضيقة لا يعلمون إلى أين يتجهون .

بعضهم يهرول ناحية السوق .. ناحية الآلهة، يجدونها قد تقدمت ولم يبقَ منها إلا بقايا صخور ثفتتها المياه، يتحاشدون .. يصرخون .. يدوس بعضهم بعضاً . يُمسك العبد بتلابيب سيده ويصفعه، ثم يصفع نفسه، ربما لأنه لم يفكر ولم يثر، ربما لأنه لم يهرب من الجلد إلى الحرية .

السيول تنهال عليهم من التل العالي، يندفعون مع التيار .. دائماً مع التيار .

تحملهم المياه في اتجاهها، وهم مع التيار منجرفون .. من سار مع التيار ونجا ؟!

لا نعلم كم مر علينا من الوقت ونحن نتابع ما يجري .

القرية الآن غارقة وكثير من الجثث تطفو على سطح الماء، وأخرى مطحونة تحت الصخور ..

(٣)

استقر القوم على السفينة، كانت عظمة ضخمة كجزيرة من
الحشب تطفو على سطح كوكب من المياه .

على لوح خشبي كبير يجلس زافر مُطرقاً لا يتحدث ولا يرفع وجهه،
جفت ثيابه والدمع في عينيه لا يجف والجرح في قلبه لا يندمل .

وقريباً منه يقف حارث على أحد جوانب السفينة، يندفع بجسده إلى
الأمم، مُمسكاً بيديه دلوًا كبيراً مربوطاً بحبل طويل من الكتان، ينزل
الدلو لأسفل ناحية الماء، يملؤه، ثم يرفعه ويمر به على القوم الجالسين
يُسقيهم أو يصب بعض الماء على أطراف أصابعه ويمسح بها على الشفاة
الحشنة الجافة للنائمين أو الذين أصابهم التعب والذهول من هول ما
شهدوا، ظل حارث على هذا الحال يسقي العطشى ويمسح على الشفاة
وينظر بين الحين والآخر إلى زافر الساكن في مكانه شاخص البصر لا
يتحرك .

سار حارث إلى طرف السفينة حيث يجلس شابٌ في منتصف العشرين، مليح الوجه كثيف شعر الحاجب، شعر رأسه أملس ناعم فاحم السواد كعين الليل، جسده ممشوق وكتفه عريض مستوٍ كلوح الخشب، ينظر إلى الفضاء، وعيناه محتقنة بالدمع، وحين التفت حارث إلى زافر يطمئن عليه وجده ينظر إلى نفس النقطة من الفضاء، ربما لهذا السبب أشفق عليه حارث، فاقترب منه وربت على كتفه العريض، لم ينظر إليه الشاب، ولم يغضب حارث لذلك بل اقترب منه قليلاً، مد يده بالإناء وقال " اشرب يا ولدي، الماء يطفى النيران " .. ألم كرشق السكين شعر به حارث حين جاء بذكر النيران .

نظر إليه الشاب أخيراً، عيناه واسعة كحيللة سوداء كشعره، هز رأسه عدة مرات بعصبية ثم قال " ليست كل النيران الماء يطفؤها " كان هذا هو أول ما نطق به آدم .

ربت الشيخ حارث على كتفه مجدداً وسأله " ما اسمك ؟ "

فقال " آدم "

نظر إليه الشيخ وابتسم، ثم قال " اشرب يا آدم .. اشرب " ..

فشرب .

ولَمَّا جاء الليل فَرَدت مائدة العشاء، قطعة كبيرة من القماش يصل طولها إلى ستة أمتار، مرصوص عليها الطعام، خبزٌ مجفف وزيتون، بلح أحمر وأصفر، وتمر وأنواع من الجُبْن وجرار من لبن .

ساق رفيعة كالمسمار تنتهي بقدم مدببة صغيرة، تكاد تحرق أرض السفينة حين تضرب على سطحها، جسد نحيل منحوت تبرز عظامه من لحمه، وخاصة عظام الصدر، وجه أسود فاحم وأسنان بارزة مرصوصة لامعة، حَد مشفوط إلى داخل تجويف الفم تبرز منه عظام الوجنتين، وكأنه خرج لتوه من القبر، كان صاحب هذا الجسد قد انتهى من رص الطعام وإعداده، ثم مر على القوم يدعوهم للتقدم للعشاء .. كان صوته يختلف عن شكله تمامًا، جهوريًا له صدى قوي جميل، يمر بين القوم الجالسين، يصفق بيديه ويزعق بمرح " اذكروا الله يا عُشاق الله، الأكل ينادي صاحبه والرزق يسعى وراء طالبه .. اذكروا الله "

قاموا إلى المائدة الممدودة، جلسوا جميعًا إلا هو، لا يزال واقفًا على رؤوسهم يسألهم بين الحين والآخر إن كان أحدهم يحتاج إلى الماء أو أنواعٍ أخرى من الطعام، وحين بكى الرضيع على حجر أمه مد يده واختطفه من على قدمها دون أن يمسه، نظر إلى الطفل وقبّل جبينه ثم قال " ما اسمه ؟ "

قالت المرأة : بدر

فقال الرجل : وأنا جمر .. لا تتعجبوا الاسم وانظروا إلى وجه صاحبه لتعلموا سره، فحين جاء إلى أمي الطلق وحمى وطيسه وقف أبي وكان أبيض الوجه جميل القسمات خارج الكوخ ينتظر أول أبنائه وحين ولدت أمي ودخل يرى فلذة كبده وقرّة عينه، فزع حين رأى وجهي الفاحم .. قال وحق سواع لا أسميه إلا جمرًا .

ضحك جمر وترددت ضحكته في قلوب الجالسين فضحكوا، وحين نظر حارث إلى آدم وزافر وجد كليهما ممسكًا بقطعة من الخبز في يديه وفي فمه الطعام لا يمضغه، يحدق كل منهما في الفضاء .

انتهى اليوم الأول وفجر اليوم الثاني قد بزغ، الكُل نيام وكل عقل يدور في فلكه،

نراقب التغيرات على وجه آدم، ما بين الفرح والحزن ثم الدهول، مؤكّد أن آسيا هي أول من يزوره في منام يوم الفراق الأول ..

كان جالساً على صخرة كبيرة ممسكاً بيده عصا رفيعة يقلب بها
الرمال .

رفع عينيه فوجدها تقترب منه، جميلة الملامح بضة الجسد، أمسك
بيدها وأجلسها إلى جواره واحتضنها، لفت حول جسده ذراعيها، بكى
وبكت .. قال ليتنا لم نفرق يا آسيا فقالت أن لا فراق ما دام الحب في
القلب باقياً . ناح وناحت، ولما أمسك بكتفها وأبعدها عنه لينظر إلى
وجهها وجدها قد تلاشت، سقطت من يده كلوح من الزجاج انكسر
وتفتت، اختفت .. صرخ باسمها .

التفت حوله يبحث عنها فإذا بطيفها يأتيه من بعيد كأنها خيال
يدب على الأرض . ترتدي ثوباً أسود اللون يغطيها من رأسها إلى
قدمها، ثوباً ضيقاً يلتصق بجسدها . لكنه مع هذا لا يكشف تقاسيمه،
وكأنها لوح من خشب صلب لا انحاءات فيه، وحين بلغت نقطة قريبة
منه تحوّلت، تغيرت صورتها وتبدلت، شعّ من جسدها نور يخطف البصر
أرغم آدم أن يُغمض عينيه للحظة، وحين فتحهما كان طيف آسيا قد
غاب، وبدلاً منها كان يقف غراب ضخم ينقر بصوت يصم الآذان،
سد آدم أذنه بكلتا يديه، وقام من نومه مفزوعاً فإذا بغراب ضخم ينقر
بصوت عالٍ طائرًا فوق رأسه .

وأسفل السلم الواقع بين الطابق الثاني والثالث للسفينة كان جمر نائماً على جنبه الأيمن، يشبك أصابع يديه واضعاً ظهر يده اليسرى تحت رأسه ..

رأى طيفاً من ذكرياته يلوح أمامه، كانت الذكريات تمر أمام عينيه وهو نائم، رأى نفسه واقفاً أمام سيده في حديقته الفسيحة، ينظر إليه بغيظ وفي يده سوط طويل مصنوع من ذيل البعير يصل إلى الهدف وإن كان على بعد عدة أمتار منه . سأله سيده " أحق ما سمعت ؟ هل تجلس وسط القوم تدعوهم أن يؤمنوا بما ينزل على نوح ؟ " فأوماً جمر برأسه أن نعم ..

رفع الرجل يده الممسكة بالسوط وهوى بها على كتف جمر فتهتك جلده وسالت منه الدماء وشعر بوخز كأنه مسامير تدق في كتفه .

نادى الرجل اثنين من العبيد وأمرهما بأن يربطوه إلى جزع شجرة، وقبل أن يبلغاه كان جمر قد جرى باتجاه سيده واختطف من يده السوط وانهمال به على جسده .

أينما حلت ضربة السوط تفجرت الدماء وتهتكت الأنسجة، كان الرجل يصرخ ويستغيث وجمر لا يكف عن الضرب، ما ترك شبراً في جسده إلا وختمه ووضع عليه بصمته، وحين بلغه العبدان رفع في

وجههما السوط فتراجعا، نظر إليهما وقال وجسده ينتفض من شدة الانفعال " ثورا .. لا تركعا لأحد ولا تخنيا لمخلوق جبهتيكما، خُلقتم بشراً لا بغيراً، لتسوقا لا لئساقا، ثورا على مستعبدتيكما، اقبضا بأيديكما على رقابكما وانتزعا حريرتكما من بين أحشائهما، الحرية ضرورة كالماء والنفس، ثورا " .

ثم ألقى بالسوط وجرى خارج القرية حيث يقيم نوح سفينته، بقي ملازماً له يساعده في إعداد السفينة، ومن يومها وقدماه لم تطأ أرض القرية، ولا أرجل العبيد غادرتها !

لم يذكر جمر ذلك اليوم بالذات ؟ هذا ما لم يعرفه .

وقريباً من آدم كان حارث وزافر يرفدان بجوار بعضهما البعض، يُحيط حارث زافراً بيديه، يضمه إليه وكأنه يحميه ..

في أرض السوق كان حارث راكعاً على ركبتيه يصرخ، وقاسم مُلقى في النيران تأكله جسده . حارث يخبط الأرض بكفه وينتحب، والنيران موقدة في جسد الشاب لا تنطفى، ارتفعت النار فجأة وهاج لهيها، خرج قاسم من وسطها سليم الجسم منير الوجه غائر العين ثابت النظرات كعادته، نظر إلى حارث وابتسم، ومن ورائه تحولت النار إلى طوفان عنيف شديد اجتاح كل من بالسوق وملاً القرية كلها، وقاسم

أمام الشيخ واقف يبتسم، اقترب منه وضمه إليه بشدة، نظر قاسم إلى عينيه طويلاً .. قبل رأسه وقال " وجع قلبك يُضنني يا عمي، وجع قلبك يحرقني لا النيران " .

ازداد بكاء الشيخ وقال من بين دموعه " الفراق مُر يا قاسم " .. نظر إليه قاسم وقال " لنا لقاء يا عمي يحين حين يشاء الرب " .. قالها ثم ولى الشيخ ظهره وسار . ناداه الشيخ فالتفت قاسم إليه، وحين نظر إليه الشيخ ذهل، فقد كان وجه زافر قد حل محل وجهه .

فتح الشيخ عينيه فوجد زافرًا بجواره ينتفض فضمه إليه، ومن فوق رأسهما كان فردٌ من الحمام يطير يبحث عن وليفه !

(٤)

صُبح اليوم الثاني .. الشمس تظهر على وجه السماء باستحياء
كبسمة مرسومة على وجه فتاة في الصبح الأول بعد ليلة عرسها. ضُربت
المائدة، ومر جمر على القوم يوقظهم بصوته العالي يقف على السلم
يصفق بيديه بقوة ويقول بصوته الجهوري

" طلع الصبح يا عشاق الله، انجلي الظلام يا عشاق النور "

جلس القوم بجوار بعضهم، التفت الشيخ حارث يبحث عن آدم
فوجده جالسًا في أحد الأركان ينظر شاردًا إلى غراب كبير الحجم يحوم
فوق رأسه، أمسك حارث بيد زافر وسار ناحية آدم، ألقى عليه السلام
وقدّمه إلى زافر، التقت الأيدي لكن العيون كانت عن اللقاء مشغولة،
دعاه حارث إلى الطعام فقبل من بعد تمنع، جلس ثلاثتهم بجوار بعضهم
البعض، نظر حارث إلى زافر القابض بيده على قطعة الخبز يعصرها،
ربت على كتفه بحنان وسأله عما كان يرى في نومه والذي جعل جسده

ينتفض وملامح وجهه تتقلب كالماعز المشدودة إلى سيخ تُشوى على النار، أطرق الصبي .. فسأله الشيخ : " مالكة ؟ "

أوما زافر ووضعت قطعة الخبز في فمه يمضغها على مهل .

اعتدل الشيخ في جلسته .. ترك طعامه من يده ووضع كلتا يديه على فخذه، نظر إلى الغراب الطائر في السماء يدور حول السفينة، سحب نفسًا طويلًا إلى رثتيه

ثم قال :

- أشعر بما تشعر به يا زافر .. تلك الوخزات المؤلمة التي تشق الصدر وتكسر الضلوع . ذلك الشعور بأن الحزن يتقل على ظهرك حتى يكاد يخنيه . انسحاب الروح وفتور الجسد واحتباس الدمع في العين . تلك الانتفاضات التي تمز الكيان وتزلزله وقد أركان الروح والجسد، الصورة التي تبقى أمام عينيك أينما وليتهما، تظهر كوحش ضخم عيناه مظلمة كبطن الحوت . آخر مرة رأيت فيها من رحل، شعورك بأن اللقاء قد صار مستحيلًا، وأن الحياة أصبحت لا قيمة لها ولا هدف .. أعرف كل ذلك يا ولدي وأشعر بأضعاف أضعافه، حين يرحل عن روحك وليفها تشعر بأن الزمن قد توقف وأن الكون قد كَف عن الدوران .

تشعر أنك قد أصبحت عارياً وسط طوفان من الشوك وسيول من الهم . تفقد الإيمان بكل ما حولك وداخلك، أشعر بكل هذا يا زافر، لكَيَّ أتحمله .

- والعمل يا عمي ؟

- عِش يا ولدي، انفض عن روحك غبار اليأس وعن جسدك أثقال الهم، لم يُخلق الموت ليجعلنا نغتم، بل لننّعت .. لنعلم ألا شئ باقٍ، لنبحث في أعماق قلوبنا عن الغاية من الموت والحياة، لنمر من ضيق الهم إلى فسحة الأمل، من الحزن على الفراق إلى الرغبة في اللقاء، فإن نحن صبرنا جُزينا خيراً في الدنيا وكُتِب لنا اللقاء بمن نحب في الآخرة، وإن نحن جزعنا وغرقنا في غياهب جُب الشك والحزن خسرتنا الدنيا والآخرة وما نفعنا مُحبينا بشئ.

كان آدم قد ترك ما بيده من طعام وأعطى الشيخ كل انتباهه، ينظر إلى الشيخ، يتأمله لأول مرة .. عجوز وجهه تملؤه تجاعيد وكأنها شقوق في جزع شجرة ضخمة قديمة، يتحدث عن الموت وفقد الأحبة وعلى وجهه ابتسامة " لوأنه فقد ما فقدت، لو أنه رأى ما رأيت ما تكلم عن الأمل "

جنين ابتسامة بدأت ملامحه تتشكل على وجه آدم، لكنه أجهضها ودفنها قبل أن يكتب لها على أرض وجهه الميلاد، تردد .. هل يشاركهم الحديث أم يصمت ويستمع، لكنه شعر أن الشيخ يُحدثه، يقصده بكلامه، يرى في عينيه صورة آسيا، هنا نظر إليه آدم وقال بعصبية :

- أى جدوى للحياة ؟ وما الحكمة فى أن تشهد موت أحبائك أمامك وأنت عن صد الموت عنهم عاجز ؟ أن ترى الذبول والمرض ينهش أحشاءهم وأنت عن شفائهم عاجز ؟ أن تقم من نومك ورائحة الموت نافذة إلى أنفك كالشوك يخترق قلبك ويُفتته ؟ ما الفائدة من كل ذلك !؟

نظر إليه الشيخ وعلى وجهه مازالت الابتسامة مرسومة كأنها جزء من وجهه لا يتغير .. قال :

- وما فائدة عقلك إن أنا أخبرتك بما عليك أن تكتشفه ؟ وما الفرق بين مَنْ ركب السفينة ومن عصى إن كان كلاهما يغضب من الابتلاء ؟

وضع الشيخ يده على صدر آدم ومسح برفق على قلبه ثم أكمل كلامه :

- طَهَّرَ قلبك من الحزن يا ولدي، فَمِنَ الحزن ما هو أخطر على
المرء من الكفر .

قام آدم من جلسته، وهروا بعصية إلى الركن البعيد من السفينة
حيث يجلس دائمًا . جلس يلهث ناظرًا إلى الغراب الحائر فوقه لا
يتوقف عن اللف، صورة آسيا مرسومة أمامه وسؤال واحد يطوف في
عقله " ما الفائدة من كل ذلك ؟! "

وجه الشيخ حارث نظره إلى زافر الجالس بجواره على وجهه الحيرة
والهم وإن كان كلام الشيخ قد دق باب قلبه وجرف عنه بعض أكوام
الحزن الساكن فيه، قال الشيخ :

- إياك وتسليم النفس لليأس يا ولدي، فهو أصل كل الشرور .

(٥)

وجد زافر نفسه فى كوخه القديم، وإن كانت بعض معاملة قد تغير شكلها، وفى إحدى الزوايا كانت دائرة النور مُقامة . اقترب وشق الدائرتين حتى وصل إلى المركز حيث كان صاحب الصوت العذب دائم الجلوس .

لكنه هذه المرة لم يجده جالساً بل وجد أن هناك رجلاً آخر يجلس محله . يجلس مكانه يثني ركبتيه كما كان بيت النور يفعل، يحرك جزعه ببطء للأمام والخلف، يردد بصوت خافت لكنه يملأ الأركان " أذكروا الله يا عشاق الله "

لم يستطع الولد أن يرى تفاصيل وجه الرجل من هذه الناحية، اقترب منه ودار حوله حتى رأى وجهه، وحين رآه تجمدت قدماه وكاد أن يسقط لولا أن تمالك نفسه، جلس أمامه يتأمله والذهول مازال مسيطراً على ثنايا عقله .

ضحك الرجل ضحكته المعهودة المتقطعة وقال بصوته العالي
الجهوري :

- تجدد اللقاء يا زافر، لكنه لقاءنا الأخير، هكذا أخبرتك آخر
مرة، أتذكر؟

بُهِت الصبي .. تلعنم .. بحث في طيات جيوب عقله على كلمات
مناسبة فلم يجد، وجد نفسه يقول والصدمة ما زالت تعتريه :

- أنت؟!

- أنا .

- لكن جسدك كان يشع نورًا عجيبيًا يكاد يخطف بصري كلما
نظرت إليك،

- بل كانت روحي، أما جسدي فأسود قائم كلون الفحم .

قالها الرجل من بين ضحكاته، أسنانه بيضاء كوجه السحاب
مرصوصة لا اعوجاج فيها كأخشاب السفينة .

- وكيف جئتني من دون أن تعرفني ولا أعرفك؟

- أرواحنا تلتقى وقتما تشاء .

أشار زافر إلى الناس من حوله، المتراصين في دائرتين إحداهما بداخل
الأخرى وسأل :

- وهؤلاء ؟

- أخبرتك أنهم عشاق الإله .

- وكيف أكون منهم ؟

- قل الحق وأخلص النية، تُر على الظالمين وإياك ونفاقهم . حرر
عقلك وجسدك من العبودية تكن منهم .

وضع الرجل يده في جيبيه، أخرج شيئاً ووضعها في يد زافر، ابتسم
فلمعت أسنانه، قال :

- هَدَيْتِكَ يَا زَافِر .

نظر زافر إلى ما بيده فوجدها ورود جميلة المنظر حمراء اللون طيبة
الرائحة تسُر النفس . قام الصبي من نومه ورائحة الورد تملأ أنفه .

وحين التقى جمر يومها نظر إليه الرجل وابتسم فلمعت أسنانه، غمز
له بعينه ثم قال بصوته العالي " اذكروا الله يا عشاق الله " ..

وتردد صدى صوته في أرجاء السفينة .

(٦)

في ركنه البعيد يجلس آدم شارد الذهن يتأمل الفراغ، تطوف
الذكريات في عقله لا تتوقف ولا تهدأ، تمر أمامه كخيوط من الدخان ما
إن يمد يده إليها ليمسكها حتى تتبدد وتختفي وكأنها ما كانت، كل
الأفكار تنكسر ويغرقها طوفان حزنه قبل أن ترسوعلى شاطئ عقله، إلا
فكرة واحدة ثابتة وراسخة كاليقين، أن آسيا قد رحلت وأن الحياة قد
توقفت، وسؤال واحد يشغل فكره .. ما الفائدة من كل ذلك !؟

ينظر إلى الغراب الذي يطير على مسافة بعيدة منه، يتأمله، يتعجب
من مدى قبحه وبشاعة مظهره، كل الأشياء من حوله قبيحة وكالحة،
سوداء كوجه الموت .

قام آدم وصورة دماء آسيا تملأ خياله، خطأ باتجاه حافة السفينة،
رفع قدمه والصورة في خياله تكبر كوحش يقتات على أحزانه . رفع
قدمه اليمنى واتكأ على يديه ثم رفع قدمه اليسرى، وقف كجبل هزمته
الريح فتناثرت رماله في كل صوب . وقف على حافة السفينة، أيساعه

رُبُّهُ إن هو ألقى بنفسه فى المياهُ ؟ وترى إن مات فهل يقابل آسيا ويرى
وجهها، يمسه بيده ويتأمل تفاصيله ؟

وإن قابلها أكون اللقاء فى جنة أم نار ؟! تمر عليه الذكريات،
تعصف الأفكار ببقايا عقله، يرفع قدمه اليمنى ويميل بجذعه إلى الأمام،
يتراجع ويستغفر، ثم تأتيه صورة آسيا، صوتها وهي تناديه، يرتفع الموج
وكأنه حضنها مفتوح أمامه يريد أن يحتويه ..

تأتي على المرء أوقاتٌ يهد فيها الحزن أركان عقله، يغزوه ويتملكه
ويقوده. تهون عليه الحياة بما فيها، يفقد الرغبة فى العيش والحركة
والسكون، يبغض حتى تلك الروح التي تدب فى جسده .

ينعق الغراب، يدور بسرعة حول السفينة يعلو ويهبط كأنه يستغيث،
كأن روحه مربوطة بتلك الروح الواقفة على شفا السفينة توشك على
الانتحار،

يتوقف جناح الغراب عن ضرب الهواء، يهبط بجسده الضخم،
يقترب من آدم، يمد قدميه إلى الأمام ويميل بجسده إلى الوراء ثم يدفع
آدم فى صدره فيسقط على أرض السفينة .

أفاق آدم، دُهل لما حدث، كيف له أن يهجم بقتل نفسه ؟ كيف وقد
لام آسيا وعذب روحه ما فعلته هي بروحها ؟! ظل يدعى والدمع يسيل

من عينيه حتى جف بئر دموعه وانقطع سيله، اعتدل وأسند ظهره على
لوح الخشب، نظر إلى يمينه فإذا بالغراب قد حطَّ بجواره ينظر إليه ويحرك
رأسه يميناً ويساراً .

بكى العاشق قلبه مُريد المُحال .

(٧)

ليلتنا الثالثة على ظهر السفينة، قل منسوب المياه وبدأت ملامح الأرض تتشكل ومعالمها تتضح، تظهر قمم الجبال كندبات في وجه الماء المستوي . جزوع أشجار وبقايا أكواخ وزرع اجتذ من جذوره يطفو على سطح الماء..

في وسط السفينة يقف جمر، يزقق بصوت يتردد صداه في الأرجاء يشق صدر الصمت ويتخطى حجب الظلام
" اذكروا الله يا عشاق الله " .

ثم يجلس على الأرض، يثني ركبتيه، تتقاطع ساقاه ويميل بجسده إلى الأمام والخلف ببطء وهوادة، يُرتل بصوت ناعم كالحرير رطب كماء بشر يؤتى ماؤه من سبع أرض :

هذب النفس واشغلها برب الأرباب

وعن الدنيا ومتاعها صد الأبواب

والعلم يؤتى ولا يأتي

وجنة الدنيا والآخرة يرثها الطلاب

اجتمع الناس حوله ينظرون إلى ما يفعل وعلى وجوههم ابتسامة إعجاب وحيرة . يستمعون إلى كلماته ويزنونها، يستشعرون ما فيها من معانٍ، تطرب للكلمات قلوب البعض فيطيلون الوقوف . يخاف البعض من الفتنة فينصرفون عنه، يعودون إلى أماكنهم، يُصلون ويدعون ربهم كما اعتادوا أن يصلوا له ويدعونه .

قام جمر .. أمسك بأيدي الرجال المجتمعين حوله يرصهم في دائرتين إحداهما بداخل الأخرى . يُرتبهم ويقوم الاعوجاج في شكل الدائرة ولسانه لا يكف عن الترتيل . تطيعه أجساد الرجال وكأنها قطعة من الصلصال طائعة لينة قابلة للتشكل بين يديه .

يقف في مركز الدائرتين ويتحرك بجسده للخلف والأمام برفق، يرفع يديه إلى السماء ويدعو بكلمات منظومة لها لحنٌ يطرب الأسماع ويلين القلوب ..

والناس من ورائه أرواحٌ لها جناحات تضرب بها في فضاء النشوة وتحلق في سماء الخشوع، يرددون ما يقول وقلوبهم من حلاوة الصوت وفرط الخشوع تكاد تذوب .

ما كاد آدم يسمع صوت جمر حتى اقشعر بدنه .. ما مس صوت قلبه ونثر الخشوع في أرجاء كيانه من بعد صوت آسيا إلا هذا الصوت عاد قلبه ينبض مجددًا وسارت الروح في عروقه ومألت جسده، وجد

نفسه يقوم ويتحرك باتجاه الصوت وكأنه مشدود إليه بجبل خفي قوي متين، وكأن قوة أخرى تحركه، تسيطر على جسده وتجعله يطيعها ويتحرك حيث تأمره، وصل إلى القوم الملتفين حول جمر، شق الدائرتين وقف أمام جمر يسمع دعاءه ويتأمل حركاته بعينٍ خاشعة محتقنة بالدمع، وجد نفسه ينضم إلى الدائرة الصغرى المحيطة بجمر، يقلده ويردد وراءه ما يقول، نظر إلى السماء فإذا بوجه آسيا يملأ أركانها، يغطي نورها نور البدر حتى يظن الناظر إليه أنه نجمٌ صغير بعيد قد ضل طريقه . تأمل آدم ملامح وجهها وتفاصيله .. عيناها الواسعة الكحيلة، طابع الحسن على خدها الأيمن، شفيتها المكتنزتين حمراء كشق البطيخ، وما أسعده وزاده نشوة على نشوته أنه رأى ثغرها يبتسم ...

نظر زافر إلى الشيخ حارث، كأنه يستأذنه أن ينضم إلى الداعين، ابتسم الشيخ وأوماً له أن يقوم، ولما مد زافر إليه يده يدعوه للقيام أمسك الشيخ بكف الصغير وقبلها ورفض .. تردد الصبي، خاف أن يكون جمر على باطل، سأل الشيخ :

- أحرام يا عمي ؟
- ما كان لله لا يحكم عليه إلا هو يا ولدي .
- ولم لا تقوم معي ؟
- الكل يعبد بطريقته .

- وإن أمرنا أن نعبد بالحركة والتأمل ؟

- ألبى دون تفكير ولا اعتراض .

- وكيف أعرف الطريقة التي أحب بها عبادته ؟

استفتِ قلبك يا زافر، ابحث عن الإجابة بداخلك، طالما أنه لم يأمرنا بطريقة محددة نصل بها إليه .

مال الصبي على الشيخ .. قبل رأسه، سار حتى وصل إلى جمع الذاكرين . انضم إلى الدائرة الكبرى، رفع كفيه إلى السماء وأخذ يردد الدعاء معهم، طوفان من الهيام ضحّ قلب الصبي فانتقل مع دمانه إلى كل خلية من خلايا جسده . رعشة خفيفة انتابت أطرافه، غامت عيناه بالدمع وفي السماء رأى السحاب يبتسم إليه، يضحك في وجهه، يحادثه ويأخذ بيده يدور به، يخترق به حُجب السماء رأى الجنة وشم ريحها وملّى عينه بالنظر إلى أهلها، ثم عاد إلى الأرض يضم مشارقها ومغاربها بين يديه، يدور وتدور الأرض معه ينظر إلى جمر فيجده مثبّتاً عينه عليه يبتسم وتلمع أسنانه البيضاء، يشير بعينه إلى فرد من الحمام أبيض كلون أسنان جمر يطير فوق رأس زافر يمد الصبي كفه فيحط فرد الحمام عليها، ثم ينفذ جناحيه ويطير، ينظر زافر إلى جمر فيشير إليه أن يتبعه، خرج زافر من الدائرة وتبع حمامة القدر إلى حيث طارت، إلى الطابق الثالث من السفينة .

صعد زافر السلم يطوي درجاته الواحدة تلو الأخرى، ونشوة صوت
جمر تسري في عروقه وتقلّب قلبه على نيران الفرحة، حتى الفرح له نار
تكوي القلب وتشعله .

وصل إلى آخر درجات السلم، نظر إلى المكان من حوله فانشرح
قلبه وانتفضت روحه من روعة ما رأى .

طيور لها أشكال وألوان وأحجام مختلفة، يسقط على أجسامها ضوء
القمر فيزيدها حسناً وجمالاً، من كل نوع وليفان لا ثالث لهما، منها ما
هو صغير الحجم ككف اليد تتداخل فيه الألوان ما بين أصفر وأزرق
ووردي، له أجنحة طويلة، ريشها كأنه الحرير، عيناها دقيقة ومنقارها
صغير أصفر اللون .

ونوع آخر كبير الحجم طويل الجسد، ريشه أحمر كلون النار، عيونه
ثابتة كأنها المسامير ..

كانت أصوات الطيور تتداخل كلحن يجيي القلوب الميتة، حتى نعيق
الغريان ونعيب اليوم كان لهما وسط الأصوات نغمة خاصة لها وقع جميل
على القلب .

قلّب نظره وسمح لقدمه أن تدور به حول هذا الجانب السحري من
السفينة، ذلك الجمال الخفي عن العيون، لفت نظره أن فرد الحمام
الذي أحضره إلى هذا المكان يطير على ارتفاع قصير حول منطقة ما في
ركن السفينة، دفع الفضول قلب زافر لأن يعرف سر هذا الطائر، سار

إلى مكانه بخطوات بطيئة حتى لا يفزعه، ولما اقترب منه التفت إليه الطائر وضرب بجناحيه الهواء فجأة حتى اختفى من أمام عين الصبي وكأنه لم يكن، ولما نظر زافر إلى الأرض رأى ملاكًا من طين .

صبيّة كحورية من الجنة أكلت من الشجرة فهبطت إلى الأرض، صغيرة الجسد بدون نحافة، عمرها لا يتجاوز الشماني سنوات، شعرها كأنها خيوط جُذلت من شعاع الشمس، عينها زرقاوان كماء البحر، شفتاها كأنهما قبسات من لب يشعل القلوب، أسنانها مرصوفة ومنمقة .

كان الجمال يشبهها كثيرًا، وكأنه مشتق وهي مصدره .

دنا زافر منها وعلى وجهه شبح ابتسامة طفولية، ردت عليه الصبية ابتسامته بخير منها، ثم تحولت ابتسامتها إلى ضحكة صغيرة رقيقة اهترت لها أوتار قلبه، قالت :

- أحب مجالسة الطيور، أصواتها ليست كأصوات البشر .

أراد أن يقول لها أنها أيضًا ليست كالبشر، أراد أن يقول لها أنها أجمل من بنات خياله، أنها حقيقة ويقين كالحياة، وكموت أمه وخاله قاسم، عبس وجهه مجددًا وانتابه الغم حين مرت صورتها على خياله، لكن طبيعة الأطفال بداخله أمرته بالانشغال بما أمام عينه من جمال .. قال :

- هذا عالم جديد عليّ . فيه سحر لا أستوعب سر جاذبيته ..

ضحكت البنت، قامت وأمسكت بيد زافر ثم قالت :

- تعالْ أريك أسراره .

ثم سحبتة من يده تطوف به في طابق الطيور، تُعلمه أنواعها
وأسمائها..

سألها زافر عن اسمها، قالت له أن اسمها ورد .

مرت بخياله الرؤيا التي زاره فيها جمر وأعطاه فيها الورد، أغمض
زافر عينيه .. تنفّس بعمق يشم رائحة الورد التي ملأت أنفه، ثم فتح
عينه ونظر إلى الواقفة أمامه تبتسم له والبراءة نهر يفيض من وجهها .

(٨)

انتهت دائرة النور .. هدأت القلوب واطمأنت الأرواح وعشش
السلام والسكينة على أفرع قلوب العباد .

شعر جمر بأن بطون الرجال تستغيث من شدة الجوع، نظر إلى بطنه
وكاد أن يسألها عن سر شعبها الدائم ورضاها بأقل القليل من الفتات .

دخل جمر إلى حجرة الطعام، قلب في القفف فوجد أن الموجود
فيها ما هو إلا كميات قليلة من البلح وبعض كسرات الخبز تكفي
لعشاء القوم اليوم ولا يبقى منها شيء للغد .

ضحك ضحكته المتقطعة وقال لنفسه " أشكر جوفك الذي لا
يجوع يا جمر " .. ثم أخذ يفرغ ما في القفف من طعام ويرصها على
المائدة الكبيرة الممدودة في وسط السفينة، جلس القوم يأكلون، مدّ
جمر يده والتقط بلحة وضعها في فمه ومضغها .

في جانبه المفضل من السفينة ينام جمر على ظهره، يثني كلتا يديه
واضعًا إياهما تحت ظهره، تمر على عقله عاصفة الذكريات لا يستطيع
أن يُوقفها . يطل من خلال شبّاك الزمن على أيام عبوديته .

لم يكن جمر يعلم لمَ يحمل أبوه له كل هذه الكراهية، يعامله بغلظة
ويتصيد له الأخطاء ليعاقبه عليها، لم يذكر أنه جلس معه مرة ينصحه أو
يلاعبه كما يفعل الآباء، وكان مما زاد الجفاء وسوء المعاملة أن أنجبت أم
جمر له ولدًا وبنّتًا يشبهان أباهما في جمال وجهه ولونه الأبيض .

يذكر أنه كان يبلغ من العمر عشر سنوات حين سمع صوت صياح
أبيه ورجاء أمه وصراخها، كانت تبكي وتنوح بصوت عالٍ وتتمتم ببعض
كلمات ضاعت حروفها بين بكائها فلم يصل إليه منها شيء .

جاء أبوه إليه .. جذبه من يده وخرج به من الكوخ، والأم من
ورائه تبكي وتصرخ وتنادي ابنها، يلتفت الصبي إلى أمه يحاول أن يخلص
يديه من قبضة أبيه، يضربه أبوه على رأسه ويأمره أن يسير معه وألا
ينظر إلى الخلف حيث كانت أمه راقدة على الأرض وقد أغشى عليها
ومن حولها ولداها ينظران إليها وإلى السائرين إلى المجهول وعلى وجههما
الخيبة .

وصل الرجل إلى السوق .. دفع الولد باتجاه ركن بيع العبيد
والجواري، نظر الولد حوله في فرع لا يعلم ما يجري، أربعه المنظر .
أولاد في مثل عمره أو أكبر منه بقليل يقفون على خشبة كبيرة في وسط
السوق ينادي رجل قصير الجسم عريض البطن على أسمائهم ويصف
أطوالهم ومدى قوتهم وتحملهم للعمل والتعذيب .

وفي ركن آخر وجد بنات جميلات الشكل صغيرات السن تقف
على رؤوسهن امرأة غليظة الوجه جسدها أقرب أن يكون جسد رجل .
رفعه أبوه على الخشبة .. تقدم من الرجل القصير، همس في أذنه
باسم الولد وسنه ثم عاد إلى مكانه .

بيع بعض الصبية وبقي جمر وآخرون، تقدم منه الرجل وأمسك بيده
وسحبه إلى منتصف المسرح الصغير، وبدأ يُعدد صفاته .

اقترب منه رجل كبير السن ضخيم الجسد، جذبه من ثيابه وأزالها
عنه. نظر الولد إلى أبيه بفرع لكن الأخير لم يطرف له جفن .

أخذ الرجل يتحسس جسد الصبي وعضلاته ثم هزّ رأسه برضا،
أخرج من جيبه صرة بها ثلاث قطع من الفضة ألقاها إلى والد الصبي .

نظر جمر إلى أبيه، قال والدمع يسيل من عينيه : " يا أبي لا تتركني،
سامحني إن كنت قد أخطأت دون قصد .. لا تتركني " .

لم ينظر إليه أبوه بل أشاح بوجهه عنه، أمسك بقطع الفضة ووضعها
في جيبه وسار باتجاه بيته .

أما الرجل الضخم فقد جذب جمر من شعره الطويل المجدد وساقه
ناحية بيته .

مرت الأيام وتقلبت الأعوام، كبر الصبي وتغيرت ملامح وجهه ونحل
جسده، كان في عمر السابعة عشر حين جرى له ما جرى .

كان يوماً طويلاً النهار حامي الشمس من أيام الصيف . يحمل
الولد على ظهره كومة كبيرة من العلف متجهًا بها إلى البيت كما أمره
سيده . دخل جمر من الباب الخلفي للبيت، دفع الباب واتجه إلى حيث
توجد غرفة الخزين وضع الكومة ووقف يلتقط أنفاسه ..

شعر بأنفاس دافئة تلمح أذنه ومؤخرة رأسه من الخلف، ويد رقيقة
تربت على أسفل ظهره، التفت جمر في فزع، نظر إلى سيدته التي كانت
تنظر إليه وتبتسم برقة . كانت المرأة تخصه عن سائر الخدم بمعاملة

حسنة ورقة زائدة .. تهتم به، تفصل له الثياب وتحرص أن يتناول طعام
مما تأكله هي وزوجها والمختلف عن أكل باقي العبيد .

- اجلس يا جمر، استرح والتقط انفاسك .

شكرها الصبي واستأذنها أن يكمل باقي شغله لكنها أصرت .
جلس على الأرض وأسند رأسه إلى كومة القش وجلست المرأة بجانبه
تنظر إليه نظرة لا يفهمها . لثمت يدها ببطء خلف رقبته ووضعت يدها
الأخرى على صدره .

" هدى أنفاسك يا جمر " قالتها وهي تربت على صدره برفق .

انتفض جمر، لم يكن يفهم ما يحدث، دارت الغرفة به وغامت الرؤية
من حوله، قربت المرأة وجهها من وجهه حتى كادت أنفاسها الحارة تلمح
صدغه .

فجأة اجتاحت جمر موجة من البكاء الشديد . كان كل جسده
يرتعد، أزاها عنه وقام . قامت، أمسكت بيده، قبلتها قائلة

" لا تخف "

لكنه أبعد يده عنها، وجرى خارج البيت .

لم تتوقف محاولاتها معه ولا ملّت السعي ورائه، بل كانت شهوتها إليه تزيد ورغبتها فيه تتضاعف في كل مرة تحاول فيها أن تغريه فيعرض عنها.

ذات يوم جاءت إليه حيث كان نائمًا تحت شجرة كبيرة، وضعت في حجره قطعة كبيرة من الذهب، قالت أنها ستعطيه مثلها أو ضعفها إن هو دخل معها الآن إلى البيت وسلمها نفسه، أشاح الصبي بنظره بعيدًا عنها ولم يُجب، مشت من أمامه ونار الرغبة تحرق جلدتها .

ظَلّت تراوده عن نفسه لمدة شهر استخدمت خلاله اللسان الرقيق والإغراء، فلما يئست من استجابته قررت أن تستخدم معه طريقة جديدة .. طريقة تليق بعبد .

في اليوم التالي كان الولد جالسًا على صخرة كبيرة في الصحراء يرمى الغنم، من بعيد رأى أربعة أشباح تتجه نحوه مسرعة، يتقدمهم رجل ضخّم البنية يسعى وراءه ثلاثة من الرجال يحملون في أيديهم أشياء لم يتبينها .

لَمَّا اقتربوا منه عرفهم، كان الرجل الضخم الذي احتقن وجهه واحمرّت عيناه هو سيده، وقف الولد وقلبه يرتجف ..

مد الرجل خطاه إليه .. رفع يده ولطمه على خده الأيسر بقوة،
لكن الولد ما تحرك ولا نظر إلى الأرض كعادة العبيد حين يصفعهم
أسيادهم، منذ صغره كان أيبًا ذا كبرياء ما أحنى جبينه لأحد ولا سجد
لصنم حتى قبل إيمانه بإله نوح .

سبّه الرجل وبصق في وجهه، قال :

- تمم يدك على زوجة سيدك يا كلب .

نظر السيد إلى رجاله، أعطاهم الإشارة ليبدأوا فيما كان قد اتفق
معهم على فعله واتجه هو إلى الصخرة الكبيرة، جلس عليها ليتابع إلى
ما سيلقاه الولد جزاء فعلته .

أمسك الثلاثة رجال بجمر، كبلوا أطرافه بحبل غليظ وربطوا به قدمه
إلى رقبته، ثم أناموه على ظهره ورفعوا عنه ثوبه كاشفين عورته .

أخرج أحد العبيد من طيات ثوبه خنجرًا صغيرًا الحجم حاد النصل،
أمسك ذكر الولد بيده اليسري وباليمنى قطع العضو من جذره، صرخ
الصبي وانفجرت منه الدماء، حاول أن يرفس الرجل بقدمه فشد الحبل
المربوط إليها رقبته حتى كاد يكسرها، وبطرف السكين أخذ الرجل يزيل
البقايا البارزة لعضو الولد وما يرتبط به، لا يثنيه عن ذلك صرخاته
المكتومة ولا الدماء السائلة من الجرح .

مد يده إلى أحد الواقفين حوله فصب الرجل عليها بعض قطرات من الزيت المغلي دهن الرجل بها مكان القطع ثم وضع عليه كثيراً من مسحوق الحناء .

أخرج من الففة الموضوعه بجانبه أنبوباً طويلاً وثبته في الجزء الباقي من مجرى بول الولد، الذي كان ينام على الأرض وقد أغشي عليه من هول الصدمة .

حمل العبيد الصبي إلى بيت الرجل، ألقوه على بطنه تحت الشجرة التي ينام عندها ..

تركة سيده يومين حتى التأم جرحه ينظر إليه بين الحين والآخر فيجده شاخص العين ينظر إلى الفضاء .

لم يطرده الرجل من بيته ولم يقتله، كان قد اشتراه بثمن رخيص وكان في إمكانه أن يبيعه بأضعاف ما اشتراه، لكنه ما كان ليستغنى عن ذلك الأسود الذي يأكل نصف ما يأكله أى خادم عنده وينجز من الأعمال ما لا يقدر عشرة عبيد على إنجاز نصفه .

وفي ظهر اليوم الثالث جاءه الرجل .. نظر إليه والغل يملأ عينيه ثم أمره أن يأخذ الغنم من الحظيرة ويذهب بها إلى الصحراء .

شعر الشاب بأن كرامته قد انكسرت ورجولته قد ضاعت .

في تلك الحادثة وما تلاها من أيام انتابت جمر حالة شديدة من الإكتئاب . فقد الرغبة في الكلام والأكل والعيش، كان ينام على بطنه تحت الشجرة يشعر بوخزات عنيفة في نصفه الأسفل تزداد حين تمتلئ مثنائه بالبول، ظل على هذا الحال ليومين، بعدها بدأت جراح جسده تلتئم لكن جراح روحه ما هدأت ولا توقف قيعها .

في اليوم الثالث جاء سيده، أمره أن يقوم من نومته وأن يكمل عمله، نظر إليه الرجل نظرة ذات معنى وقال :

- وتستطيع أن تنام بجوار زوجتي إن شئت، فلا خوف منك الآن
يا خصي .

ابتلع جمر الإهانة، مزقت الكلمة روحه وكسرت عظامه، قام واتجه ناحية الحظيرة، أخرج الأغنام وساقها ناحية المرعى .

وفي الصحراء تكاثرت الأفكار في عقل الصبي وثقلت على روحه أراد أن يلعن قسوة أبيه وضعف أمه التي ما حاولت أن تزوره أو تراه منذ أن باعه أبوه، لكنه التمس لها العذر، فما كان قلبها الضعيف ليحتمل أن ترى ابنها الأكبر مربوطاً إلى شجرة يجلدته سيده لأتفه الأسباب .

أراد أن ينتقم من سيده وزوجته، أراد أن يطلق قدميه للريح يجري وراء الأغنام يُعمل فيهم عصاه الطويلة ليفزعهم فيتيهوا في الصحراء فيحرق قلب سيده الغليظ، وما منعه إلا الخوف .

عامان مرا على تلك الحادثة، أصبح جمر في التاسعة عشر من عمره، التأم جرحه القديم تمامًا، لكن رغبته في النساء ما عادت، وكأنها قد قطعت مع ما كان قد انقطع .

كان سائرًا في طريقه إلى البيت حين رأى ذلك الرجل طاعن السن، طويل الجسد عريض الكتف يمشي أمامه يتخبط في خطواته يحمل على ظهره لوحًا عريض من ساق النخيل، ما كاد الرجل يسير خطوات قليلة حتى وقع منه اللوح الضخم فاختل اتزان جسده وكاد أن يقع على ظهره لولا أن أدركه جمر وأسند ظهره قبل أن يقع .

اعتدل الرجل، نظر إلى جمر وعلى وجهه ابتسامة، قال :

- جُزيت خيرًا يا سيد .

لم يبادل جمر الابتسام، لكنه قال بأدب :

- ما أنا إلا عبد يا سيدي .

- يُعرف العبيد من عيوتهم يا ولدي، وما عينك إلا عين سيد كريم.

أطرق الشاب، ولم يُجب كانت الحياة أمامه جحيم، لا لون لها إلا لون الدم ولا طعم إلا طعم السوط .

انحنى الرجل، حمل ساق النخيل فعدلها جمر على ظهره وقلبه مشغولٌ بما قال الرجل . أراد أن يعرف مَنْ هو وعن أي إله يتحدث، لم يكن قد ابتعد عنه طويلاً، مدّ جمر الحُطَي إلىه حتى بلغه، وقف أمامه وسأله :

- ما اسمك يا عمي ؟

- نوح .

نظر إليه نوح ومازالت الابتسامة على وجهه، أحكم بيده قبضته على ساق النخل المحمولة على ظهره وبيده الأخرى أشار إلى طريق طويل أمامه وقال للولد :

- في آخر ذلك الطريق أبني سفينتي خارج القرية، زرني إن شئت أن تعرف ربك .

سار نوح في طريقه وجر من خلفه واقف لا يتحرك، راقب ظل الرجل حتى غاب عن عينيه فاستدار عائداً إلى بيت سيده، وحين وصل إلى باب البيت خطر على ذهنه خاطر عجيب، كيف عرف ذلك الرجل اسمه من دون أن يخبره جمر به !؟

سرت هزة قوية في جسد الشاب، تذكر وجه نوح وابتسامته التي لا
تغيب مهما كان الحمل على ظهره ثقيلاً، أراد أن يكون مثله، لا ترهقه
مصائب الدنيا ولا تفتت العبودية عظامه، أراد أن يكون سيِّداً لا عبداً،
جرى باتجاه الطريق الذي أشار نوح إليه، خرج من القرية وحين وصل
إلى حيث كان نوح يقطع بفأس كبير ساق النخيل التي كان يحملها على
ظهره منذ قليل وقف جمر أمامه وقال وجسده ينتفض من شدة
الحماس:

- حدثني عن إلهك يا عمي .

فتح جمر عينيه، نظر إلى السماء الغائمة من فوقه وقف على السلم
الكبير للسفينة، صقق بيده وقال بصوت عالٍ " اذكروا الله يا عشاق
الله " .

(٩)

سكن قلب آدم، فُتحت لعيناه طاقة ينظر بها إلى الملكوت، رأى
الدنيا بعين جديدة .. عين ترى أدق تفاصيل الكون، وتشعر بما لا
يشعر به قلب آدم القديم الجزع .

وضع آدم يده على رأس الغراب المستكين إلى جانبه، ربّت يده
على عنقه برفق فأغمض الطائر عينيه في استسلام ..
ينظر آدم إليه لأول مرة عن قُرب، يتأمل ملامحه ويدقق النظر في
عينيه، تُرى هل يضحك الغراب حقًا أم أن هذا وهم صنعه خياله !؟

دقق آدم النظر إلى وجه الغراب، تعجب من التغير السريع الذي
حدث لرأيه في هيئة الغُراب، الذي كان يراه منذ قليل قبيحًا كالح
الوجه، أما الآن فهو يراه جميل الهيئة برئ الملامح شامخًا كالجبل . سأل
نفسه .. هل الحياة بكل ما فيها قبيحة حقًا أم أن كل الأشياء تبدو
قبيحة مبهمة إذا نظرنا إليها من بعيد، فإذا اقتربنا منها ودققنا فيها
وتأملناها فإننا سوف نرى ما فيها من جمال ؟

على لوح صغير من الخشب جلس الطفلان، كلاهما ممسك بيد الآخر يراقبان الطيور البديعة السابحة في دنيا من الجمال .

يشير زافر إلى نوع من الطيور طويل المنقار جسده ملئ بألوان عديدة على شكل دوائر متداخلة متناسقة، سألها عن اسمه فأجابت ورد:

- عصفور الجنة .

ابتسم الصبي لما في الاسم من غرابة، سألها :

- مَنْ أخبرك بأسماء كل تلك الطيور مع أننا لم نَرِ معظمها في قريتنا من قبل ؟

أمسكت ورد بضع خصلات من شعرها ولقّتها حول إصبعها، قالت:

- هُم أخبروني .

ضحك زافر بصوت عالٍ وقال :

- لكِ خيال واسع ..

فضحكت ورد ولم ترد، وإن كان قد ضايقها أن زافر لا يصدقها .

- أين أهلك يا ورد ؟

اعتدلت وتركت خصلات شعرها من يدها، أشارت إلى السماء
ببراءة، وقالت :

- في تلك الخيمة الزرقاء، وأنت ؟

- في نفس الخيمة .

ضحك الطفلان، وكانت تلك أول مرة يذكر فيها زافر أن أمه
وخاله قد ماتا دون أن تدمع عيناه .

- وما الذي جعلك تركبين السفينة ؟

سكتت ورد واحمر خدها، أرادت أن تخبره عن سبب ركوبها
السفينة، وعن رؤياها التي لم تقصها لأحد، ولكن إذا كان زافر لم
يصدقها حين أخبرته أن الطيور هي التي أنبأها بأسمائها فكيف له أن
يُصدقها إن هي أخبرته بأن ملك يضاء جسمه بنور عجيب يُبهر النظر
زارها كثيراً في منامها يأمرها أن تركب السفينة .

(١٠)

يومنا الخامس على ظهر السفينة .. نفذ الزاد، الجوع يسري في العروق محل الدم، يومٌ عصيب تمر فيه الساعات بطينة كالسحاب .

يمسك الرجل بالدلو، يلف الحبل المربوط فيه حول يده ثم يلقي بالدلو في الماء . منسوب المياه قد انخفض، لذا حين يرفع الرجل الدلو بعد أن يمتلئ يجد الماء عكراً أصفر اللون تسبح ذرات الرمل والغبار على سطحه، يغمض عينيه ويعب ما في الدلو من مياه ورمال، يملأ بها جوفه ويقتل بها جوعه،

استبد بالقوم الجوع في صباح اليوم السادس، أراد البعض أن يذبحوا أحد الدواب في الطابق الأسفل من السفينة لكنهم ما كانوا ليعلنوا عن رغبتهم في ذلك مخافة أن يغضب عليهم نوح، فاحتملوا الجوع وتصبروا بالدعاء .

في أحد أركان السفينة يجلس الشيخ حارث القرفصاء فاردًا ذراعيه يربت بهما على كتف زافر وورد، ينظر إليه زافر ويقول :

- لست جائعاً يا عمي، لا تحف.

فترد ورد ببراءة

- ولا أنا .. أشعر أن بطني ممتلئة بالطعام ..

يضحك الشيخ، يمسح بطرف ثوبه الخيط الرفيع السائل على جانبي فمه، تبدو على وجهه علامات ألم شديد يجثم على صدره، لكنه يتحامل على نفسه متناسياً الألم منهمكاً في الربت على كتف الطفلين والتخفيف عنهما .

وعلى خشبة كبيرة يجلس آدم، يثني ذراعه أمام وجهه ينظر إلى الواقف على يده يقلد حركاته، يحادثه وكأنه يسمعه، يفرد الغراب ذراعيه يطير حوله ثم يحط على يده من جديد .

انتصف الليل وجافى النوم عيون البعض وأغاب الجوع الشديد عقول آخرين فغلبهم النعاس، ناموا وبطونهم تكاد من شدة الجوع تهضم نفسها .

اقترب الساهرون من بعضهم البعض، كلٌّ يتلمس الدفء والطمأنينة من الجالس إلى جواره، أخذوا ينظرون إلى بعضهم في البداية وأفواههم تتحرك بتمتمة لا يكاد الرجل يدرك ما يقوله الجالس إلى جواره . انضم جمر إلى الجمع، جلس بجانبهم لا في وسطهم كعادته . أخذ شيخ كبير السن هزيل الجسد يدعو بصوت عالٍ والناس يرددون من ورائه .

دبّ الحماس في القلوب، ونست الأبدان أمر الجوع، قاموا وتراصوا

في دائرتين إحداهما بداخل الأخرى .

قام جمر ووقف في مركز الدائرتين رفع ذراعيه وبسط كفيه إلى السماء وأخذ يدعو والناس يرددون من خلفه، يُرثم ببعض كلماته المنظومة فتطرب الآذان وتدمع العيون .

انضم آدم للدائرة حين سمع صوت جمر يشق السكون، دار معهم وردد وراءهم، ينظر إلى السماء التي ظهرت على وجهها خيوط الفجر الأولى ورُسم على سطحها ثغر آسيا الباسم ويدها المبسوطتين باتجاه آدم .

ثم انضم إليهم زافر ومَن كان نائمًا من القوم، فاتبعت الدائرتان وتزاحمت الأجسام دون تدافع، علت الأصوات وطارت القلوب وداس اتساع الصدر على جوع البطن حتى طمسه .

طلع الصباح على القوم وأجسادهم ما كَلَّت الوقوف، ولا ملَّت ألسنتهم من الدعاء والتسبيح، يخلقون في سماء العشق .

فجأة انتابت السفينة هزة قوية كأنها زلزال عنيف، سقط بعض القوم على الأرض، ماج بعضهم في بعض، وتشبث البعض الآخر بأقطاب الخشب البارزة من جوانب السفينة التي ارتفعت مؤخرتها عن سطح الماء وارتجت جوانبها حتى كادت تنقلب بمن فيها .

الفصل الثالث
ومن النهايات بداية

(١)

توقف اهتزاز السفينة وسكنت وكأنها ما ارتجّت، ارتطمت مؤخرتها
بالماء مجدداً وكفّت جوانبها عن الحركة العنيفة لأعلى ولأسفل .

أفاق القوم من صدمتهم .. قاموا ينظرون حولهم والرعب ما زال
يتملكهم ويسري في قلوبهم، نزل زافر السلم يطوي درجاته مسرعاً
يصرخ من شدة الإثارة والفرح :

- رست السفينة .. ارتطمت المقدمة بلحف الجبل، انظروا
حولكم.

مرّ على القوم بضع ثوانٍ لم يفهموا فيها ما يقوله الصبي، ثم نظروا
حولهم فما كادوا يرون ما يحيط بهم حتى صرخوا من شدة الفرحة .

كان المنظر من حولهم بديعاً .. السفينة راسية على قمة جبل عالٍ
يناطح السحاب، يبرز من بين رماله الصفراء عُشب أخضر اللون قصير
الساق كثيف الأوراق يغطي سطح الجبل كله من سفحه وحتى قمته .

اختفت الغيوم من السماء حتى أصبحت صافية كوجه الماء . طلعت الشمس دائرة كاملة من اللون الأصفر قوية عفية تصوب أشعتها باتجاه الأرض تبعث الدفء في القلوب الخائفة . انخفض مستوى الماء إلى أقل من نصف ما كان عليه قبل أن ترسو السفينة على قمة الجبل .

صعد نوح إلى الطابق الثالث للسفينة، أمسك بزوجين من الحمام، وأطلق واحدة منهم في كل اتجاه من الجهات الأربعة . وقف القوم يراقبون الحمام الطائر فوقهم يترقبون أن تدور أحدهم حول منطقة معينة في حركة دائرية كدليل على وجود الماء والحياة في تلك البقعة .

ابتعدت الحمامات حتى غابت عن الأنظار، وقف القوم على جوانب السفينة يترقبون، طال انتظارهم وطال غياب الحمامات، مرت على القوم ساعة طويلة من اليأس والترقب كانت بقايا الأمل فيهم تنتفض وتلفظ أنفاسها الأخيرة .

ترك البعض مواقعهم التي كانوا ينظرون منها واتجهوا إلى وسط السفينة يدعون ويضغطون بأيديهم على بطونهم كي يخف إحساسهم بالجوع .

صاح أحد الرجال فنظر إليه الناس ليجدوه مشيراً إلى شيء ما في السماء . طيف صغير لا يكاد المرء يراه يزداد حجمه وشكله وضوحاً

بالتدرّج كلما اقترب منهم، صاحوا بصوت عالٍ حين رأوا أحد أفراد الحمام يطير باتجاههم حاملاً في فمه غصن طويل أخضر اللون حط به على كتف نوح .

ربت نوح على رأس الحمامة، أمسك بالغصن وقال مبتسماً :

- غصن زيتون .

فرح القوم وانفرجت أساريرهم ضحكوا ولمعت أعينهم ببريق من الأمل واحتضنوا بعضهم البعض .

كان عليهم أن ينزلوا من فوق الجبل وأن يعموا في المياه الخيطة به والتي يصل طولها إلى بضعة أمتار قليلة ثم أن يسيروا في الاتجاه الذي جاءت منه الحمامة .

كانت مهمة الطير هي الأيسر والأيسر .. صعد إليهم نوح وأشار إلى الجهة التي ستطير إليها فكانت أول الواصلين .

كان نوح هو أول من نزل من السفينة ودبت قدماه فوق رمال الجبل تلاه جمر ثم آدم، وقف ثلاثتهم في صف بطول الجبل، أمسك كل منهم بيد الآخر . يقف نوح عند مدخل السفينة أمسك بيد النازل ووسلمها إلى جمر الواقف إلى جواره، فيسلمه إلى آدم الذي يضع يده أمام صدر

النازل حتى لا يندفع مع الانحدار الشديد للجبل، يسنده ويمسك بيده ويضمه إلى الصف .

بدأ الرجال بالنزول، تَلَّتْهُمُ النساءُ فالشيوخ ثم الأطفال، نزل الشيخ حارث مستنداً على كتف زافر يقبض بيده على صدره يغالب ما يشتعل بداخله من ألم ويسعل بقوة .

فتح نوح الباب المؤدي إلى الطابق الأسفل .. دلف منه ومعه جمر، وضع الحيوانات الضارية ثقيلة الحجم العاجزة عن السباحة في صناديق عظيمة من الخشب ودحرجها من فوق قمة الجبل فسقطت في الماء بسلام وعامت باتجاه الرياح في الطريق المراد . وأطلق الدواب خفيفة الحجم القادرة على السباحة وضرب المياه بأقدامها فنزلت من فوق الجبل إلى الماء دون مساعدة تُذكر من صف الرجال الذي يغطي الرُبع الأعلى من قمة الجبل .

سبحوا مسافة تصل إلى ستمائة قدم . يضرب بعضهم الماء بيديه وقدميه فتحمله على سطحها وتدفعه إلى الأمام، ويتشبث بعض الشيوخ بلوح كبير من الخشب يقرفصون على سطحه ويضربون الماء بأيديهم .

على أحد الألواح جلس الشيخ حارث يدخل الهواء إلى رئتيه بصعوبة بالغة، يضرب بكفه على صدره ويسعل تندفع بعض قطرات من

الدماء من فمه ممتزجة بلعابه الذي ما عاد ينزل من جانبي فمه على
هيئة خيط رفيع . بل أصبح يندفع من فمه اندفاعاً، يضم إلى صدره
ورد وزافر . ينظران إليه والقلق يملأ عيونهما .

وصلوا أخيراً إلى نهاية المياه، صعدوا إلى متوسط الإرتفاع يطلُّ على
موطنهم الجديد .

(٢)

من أعلى التل ينظر الناس إلى الواحة الممتدة على مدى أبصارهم .
بحيرة كبيرة تمتلئ حتى حافتها بماء رائق اللون يستطيع الناظر إليه أن
يرى رمال القاع من شدة صفاء مياهه، مئات من أشجار النخيل
المثمرة ونبات التين الشوكي والصبار والخبيز والحميض والعرجون التي
تزهو في الصحراء بعد سقوط الأمطار، وكثير من أشجار الفواكه ..
كانت الواحة قطعة من الجنة على الأرض، يظهر في آخرها قوس
عظيم مؤلف من سبعة ألوان يمتد بعرض السماء .
هبط القوم التل يجرّون باتجاه الأشجار، أكلوا وأكلت الحيوانات
وشرب الطير حتى امتلأت البطون وثقلت الجفون، ناموا من بعد طول
سهر مطمئنين ترفرف السكينة حول أرواحهم .
انتشرت الحيوانات والطيور بداخل الواحة وخارجها كل وليف لا
يترك وليفه .

مرّ علينا أربعون يوماً، جفّت المياه خلف الجبل وحوّله وحلّت
مكائنها النباتات، وبنى البعض مساكنهم فوق التل وخلف الجبل، توسّع
العمران وحُفرت آبار المياه وحُثرت الأرض استعداداً لزراعتها بمختلف
المحاصيل، حملت الأبقار والماشية، وُزِع نسلها على الناس بالعدل فكان
نصيب زافر وورد منها عنزة صغيرة بيضاء بلون اللبن .

على التل يقف آدم . يحمل على كتفه حمل كبير به زادٌ يعينه على
رحلته الطويلة، ودّع زافر، ثمّ قبّل يد الشيخ حارث ورأسه، احتبس
الدمع في عينيه حين رأى المرض يشتد عليه، ينخرعظام الشيخ ويأكل
جسده .

طلب من نوح أن يدعو له أن تُقصر عليه المسافات ..

سار آدم في الصحراء وحيداً يعلم قبلته، يحمل على كتفه الأيمن
حملة وعلى الكتف الآخر يقف الغراب منتفخ الصدر مرفوع الرأس
يستمد من رفيق دربه الحماس والثقة .

(٣)

ثم مات الشيخ حارث ..

تحت ظل نخلة يجلس قابضاً على صدره، وأمامه زافر وورد، ينظر الشيخ إلى وجهيهما البرئين وأياديهما المتشابكة، يحتمل على نفسه ويرسم على جانبي فمه ابتسامة قتلها الألم فما اكتملت وأغرقها طوفان الدم واللعباب المندفع من فمه .

يسعل مرات متتالية لا يكاد الهواء يدخل خلالها إلى صدره، فيزداد وجهه شحوباً ويغزوه اللون الأزرق .

يمد يده إلى زافر فيمسكها الصبي مسرعاً، يعدل من وضع الشيخ، يسند ظهره مفروداً على جرع النخلة يندفع الهواء إلى رئتي الشيخ ويخرج منه على شكل فقاعات من الماء المتراكم بداخل رئته .

يعتصر الألم بطنه . ثلاثة أيام ما ذاق فيها طعم الزاد، تفاجئه نوبات عنيفة من القيء لا يخرج خلالها إلا عصارة معدته .

يغمض الشيخ عينيه، تنتابه موجة جديدة من القيء المختلط
بالسعال، دماء وعصارة ولعاب يندفعون من جوفه، يمسح أطراف فمه
بخزقة بالية من الصوف موضوعة إلى جانبه، ينظر إلى زافر طويلاً يفتح
فمه يريد أن يتحدث فيخرج الكلام منه ضعيفاً متكسراً تضع بعض
حروفه لكنه ومع ذلك مفهوم .

- إني موصيك يا ولدي .

احتبس الدمع في عيني زافر، قبل يد الشيخ وأطرق مستمعاً إلى ما
يقول :

- اعلم يا ولدي أن الحياة مهما طالت قصيرة، وأن لكل بداية
نهاية ولكل رحلة متعة وغاية، وأن غاية العيش الآخرة، ومتعة
الدنيا نراها واضحة جلية في أعين من نقابلهم طوال ترحالنا
فيها .

لا تعتزل البشر ولا تعش في تلك الحياة وحيداً، فما ذاق طعم
الفرح من لم يكن له في الدنيا وليف .

اذكر ربك يا ولدي ولا تيأس من رحمته، واستفتته في كل أمورك .

ثم وازن بين ما يمليه عليك قلبك، وما يأمرك به عقلك تكن من
الراجمين .

ابتسم الشيخ، أمسك زافر بقطعة الصوف ومسح بها فطرات الدم
المنتاثرة على وجهه . نظر حارث إليه طويلاً ثم اتسعت ابتسامته وكفَّ
سعاله وقتنه حين نظر إلى نقطة بعيدة من السماء وثبت عينه عليها .
لمعت عيناه ببريق عجيب، ثم قال :

- قاسم يقرنك السلام، ويوصيك بورد خيراً .

بكى الصبي واهتز جسده كله، وبكت ورد حتى كادت تسقط على
الأرض، نظر إليهما الشيخ بعطف، ربت على كتف زافر وأشار إلى ورد
أن تقترب، فلما اقتربت منه أمسك بكفها الصغير ووضعها في كف زافر،
تشابكت أصابعهما فابتسم الشيخ وقال :

- وما عاش يا ولدي من لم يمُت على الحب .

ثم وجه حديثه إلى السماء قائلاً من بين أنفاسه المتقطعة :

- ما قصرت يا قاسم، وحقك عندي ما قصرت .

تمتم بكلمات لا تُسمع ونظر إلى زافر مشيراً إلى أعلى التل، ففهم
الصبي ما يريدته الشيخ ..

انتفض جسد حارث وشهق شهقة قوية ارتج لها جسد الطفلين
الواقفين أمامه، فارقت الروح الجسد الذي استحال شحوب وجهه نوراً
وجحوظ عينه واحتقانها سكوناً .

صعق الصبي، انسحبت الحياة من جسده فوقف كصنم جامد ينظر
إلى الشيخ بوجه خالٍ من أى تعبير، ثم اندفعت فى جسده مرة واحدة
بقوة وعنف رجته الصدمة وزلزلت كيانه ومئات الطوافين تموج بداخله
ونيران كأنها السعير تحرق قلبه وأحشاءه .

انكب زافر على جسد الشيخ، أمسك بيده وقبلها، ناداه فلم يُجب
ثار الزلزال بداخله وهاج طوفان عينه فأغرق وجهه " يا عمي قُم "
ظن أن الشيخ لا يسمعه فناده بصوت أعلى، فما سمع رداً، صرخ
بأعلى صوته " يا عمي، يا أمي، يا خالي " فما أجاب عليه أحد منهم.
إلى جانبه تجلس ورد، تربت على كتفه فينتقل تيار الحزن منه إليها،
تبكي كما يبكي وتصرخ كما يصرخ ..

(٤)

طال السير بآدم، مضت عليه أيام طويلة كفّ عن عدّها .
مستخدماً مواقع النجوم واتجاه الرياح يعرف طريقه، يحمل زاده على
كتفه وفوق رأسه يطير الغراب، يرتفع أحياناً إلى السماء، يغيب عن
نظره قليلاً ثم يعود إليه من جديد، يحط على كتفه ويمسح في شعره
منقاره الطويل .

يبتسم آدم ويضع يده في حمله، ويخرج منه كسرة من الخبز يضعها
في فم الطائر، يلتقطها الغراب .. يلتهمها بسرعة ثم يضرب الهواء
بجناحيه ليعاود الطيران .

شهران من السير مرّا على آدم، وصل أخيراً إلى مشارف قريته
القديمة، تغيرت القرية حتى أنه لم يعرفها في البداية .

كانت خاوية على عروشها خالية من الحياة، لا زرع فيها ولا أثر
للطوفان .

ينظر حوله، يعيد اكتشاف المكان .. بحار من الرمال ممتدة أمامه،
صحف صفراء اللون مفرودة أمامه تنتظر أن تخط أقدامه آثارها على
وجهها ..

دخل آدم القرية والذهول يعتريه، يتأمل ويعتبر . ما نفع أهل القرية
ما لهم ولا مساكنهم الحصينة . الكل مات ولم يبقَ على الأرض منهم
أحد .

فجأة تذكر آدم الهدف الذي جاء من أجله إلى القرية قاطعًا كل
تلك المسافة ..

جرى باحثًا عن الجبل الأحمر، ترعبه فكرة أن يكون الجبل قد اندثر
تحت الأرض مع ما ابتلعه جوفها بعد الطوفان .

دار في القرية كالجنون، وصل إلى سهل منخفض، جال بنظره في
الأرجاء فرأى ظلًا أحمر اللون لاح من بعيد كالدَّمْلُ الظاهر باستحياء
على الوجه .

سار آدم ناحيته والأمل ينتفض بداخله . وصله أخيرًا، شكله تغير
لكنه هو . يعرفه آدم ولا يتوه عنه، قل طوله كثيرًا عما كان عليه قبل
الطوفان ..

صعد آدم الجبل مسرعاً، مع كل خطوة تخطوها قدماه باتجاه القمة
تمر على عقله ذكرى .

نغر آسيا الباسم، عيناها القويتان، طريقتها الجميلة التي كانت
تداعب بها صدره وتشم رائحته، جدالهما الطويل حول أمر الطوفان
وحقيقة الرب، جلد رقبتها المقطوع والسكين الملقاة إلى جوارها .

وصل آدم إلى القمة أخيراً، نزل على ركبتيه، وقال من بين دموعه
" سلام عليك يا آسيا " . لم ينتظر منها ردّاً ولكنها أجابت .

سمع صوتها جميلاً هادئاً يُدغدغ قلبه، شم ريحها وشعر بها تحتضن
ظهره العاري، تدور حوله تحتضن صدره وتقبله .

وضع حمله على الأرض .. نام على قمة الجبل حيث دفن آسيا ..
أغمض عينيه وغاب في سبات عميق لم ينم مثله منذ أن حدث الطوفان
وفارق آسيا .

وفوقه يدور الغراب، ينعق بصوت عالٍ، ومن حوله صمت تام
كالموت يخيم على أرجاء القرية .

على قمة التل الكبير يجلس زافر مُسنِّدًا رأسه على قبر الشيخ حارث، يردد عليه ما أوصاه به الشيخ قبل موته يحدثه .. يصف له حال القوم، يحكي له أخباره، يعده أن يقص حكايته على أبنائه وأن يجعلهم يحفظونها وينقلوها كالميراث إلى أبنائهم، فأمثاله لا نهاية لذكرهم مادامت الأرض .

تقترب منه ورد، يقوم من جلسته ويمسك بيدها، يقفان على حافة التل ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر وعلى وجهه ابتسامة العشاق إذا رضوا يوجه زافر نظره إلى الواحة العامرة بالناس والخير من أمامه، يردد بصوت جميل يقلد فيه طريقة الشيخ حارث في الكلام :

" وما عاش يا ولدي من لم يمّت على الحب " .

*** تمت ***

شكر خاص ...

لأبويا . أول حد حَبَّي في القراءة، وأول حد قاللي (اكتب) مِن
وأنا لسه في أولى إعدادي .

ولأمي، لإن العلاقة بيني وبينها أظهر من الكلام اللي هيوصفها .
شكرًا إنك دايمًا شايفاني أحسن إنسان في الدنيا مع إني مش كده .

ولأختي أميرة، اللي قالتلي (هقراها لما تتطبع) . واللي الدنيا
ملهاش حس مِن غيرها .

لعبد الله، والشناط، ودفشر ومحليس والفتحام ودوير . فؤاد
وهادي ويونس، ويتر . لإنهم صحابي .

ولفضل لإنه مش زي باقي صحابي .

للدكتور عبد المنعم فوزي، أستاذ النساء والتوليد في كلية الطب
جامعة الإسكندرية، لإنه بيعاملنا على إننا ولاده، ولإننا المنتفَس
الوحيد، على حد قوله.

لأُمّاني حسانين ومي البنّان، عشان فرحوا بالرواية أكثر من فرحتي أنا
بيها.

لأُمّي الثانية، آية علي .

ولإنّ الحلو دائماً يجي في الآخر فالشكر هنا خاص جداً . إلى
الصديقة هبه رزق، أدامها الله نعمة وحفظها من الزوال .